أشهر القصص اللصوصية

أرسين لوبين

1

السرقة العجيبة

موريس لبلان

YOUSRA



مكتبة معروف

أشهر القصص اللصوصية

أرسين لوبين

السرقة العجيبة

ترجمة

محمد عبد المنعم جلال





الإسكندرية ـ ٤٨١٠٨٢٨ / ٤٨٤٦٤١٠ فاكس ـ ٤٨٦٠٠٨٩ القاهرة ـ ٠٢٢ ٤٠٣٧٧٩٢

ص . ب ٣٧٠ الإسكندرية E- mail : maarouf 2004 @ hotmail . com



وثب بيشو فى سيارة الأجرة ، واندفع إلى مكتب بارنيت كالعاصفة . ورحب بارنيت به قائلاً :

ـ آه هذا جميل منك ، فقد افترقنا فى ذلك اليوم بكل برود ، وخشيت أن تكون غاضباً منى . فما الأمر ؟ هل أنت بحاجة إلىّ ؟

نعم يابارنيت .

هز بارنيت يديه فى قوة وقال : هذا حسن ، ولكن ما الأمر ؟ أن وجهك شديد الاحمرار ، فهل أنت مصاب بالحصبة .

ـ لاتسخر يابارنيت فالموقف عسير وأريد أن أخرج منه مرفوع الرأس

ـ ما الخبر أذن ؟

ـ إن الأمر يتعلق بزوجتى .

ـ زوجتك ؟ وهل أنت متزوج ؟

ـ بل مطلق .. منذ ست سنوات .

ـ لتنافر الطباع ؟

كلا .. وإنما لأنها تنصاع لرغباتها .

ـ ومن بينها الانفصال عنك .

ـ أرادت أن تشتغل بالمسرح.. هل تفهم الآن؟ زوجة مفتش بوليس !

ـ وهل أصابت نجاحاً ؟

ـ نعم فهى تغنى .

ـ فى الأوبرا .

ـ بل فى مسرح الفولى برجير .

ـ وما أسمها ؟

ـ أولجا فوبان .

ـ تلك المغنية التى تقوم بالألعاب البهلونية ؟

ـ نعم .

عبر جيم بارنيت عن حماسه قائلاً :

ـ على كل تهانى يابيشو فإن أولجا فنانة موهوبة .. وأغنيتها الأخيرة "ايزيدور يحبنى ولكننى أحب جيم" تدل على فن كبير .

قال بيشو : أشكرك ، لقد جاءتنى هذه البرقية منها ، وهى مؤرخة بتاريخ صباح الأمس .

وقرأ : سرقوا غرفة نومى ، وكادوا يقتلون أبى فتعال : أولجا .

قال بارنيت : إن الكلمة "كادوا" هذه تدل على عبقرية !

عاد بيشو يقول : وقد أتصلت تلفونياً بإدارة الأمن ، وهم على علم بما حدث ، وحصلت على الإذن بالانضمام إلى زملائى الذين يقومون بتحقيق الحادث .

سأله بارنيت : وماذا تخشى ؟ .

أجاب بيشو فى لهجة يرثى لها : أخشى أن أراها ثانية !

ـ أمازلت تحبها ؟

ـ عندما أرها تسرى الرعشة فى قلبى من جديد ، ويجف حلقى

وأتلعثم .. فهل تتصور تحقيقاً فى هذه الظروف ؟ لن أقدم إلا على حماقات .

ـ فى حين أنك تريد أن تكون على العكس، وقورا أمامها، وأن تكون فوق ذلك على مستوى سمعتك ؟

ـ تماماً .

ـ صفوة القول إنك تعتمد على ؟

ـ نعم يابارنيت .

وما هو سلوك زوجتك ؟

ـ لاغبار عليه ، لولا تلك النزعة التى تتملكها لبقيت مدام بيشو حتى اليوم .

قال بارنيت فى لهجة الجد وهو يأخذ قبعته :

ـ وبذلك يخسر الفن خسارة كبيرة .

وبعد بضع لحظات بلغا شارعاً من أهدأ الشوارع وأقلها ازدحاماً، بالقرب من حديقة لكسمبورج.. وكانت أولجا فوبان تقيم فى الطابق الثالث والأخير من بيت جميل ، نوافذ طابقه الأرضى مرتفعة ومزودة بقضبان حديدية .. وقال بيشو :

ـ كلمة أخرى ، وهى أن تكف هذه المرة عن مزاعمك وادعاءاتك التى تعيب تعاوننا.

قال بارنيت : إن ضميرى .

قاطعه بيشو قائلاً : دع ضميرك فى هدوء ، وفكر فى ضميرى أنا ، وفى اللوم والتوبيخ اللذين ألاقيهما منه .

ـ هل تظننى جديراً بأن أسلب من أولجا فوبان شيئاً ما .

ـ إننى أطلب منك أن لاتسلب شيئاً من أى أحد .

ـ حتى أولئك الذين يستحقون ذلك ؟

ـ دع العدالة تتولى عقابهم .

تنهد بارنيت وقال: هذا أمر غريب حقاً .. ولكن مادمت تريد ذلك .

؟ ؟ ؟

كان أحد رجال الشرطة يحرس الباب وآخر يلازم البواب وزوجته فى غرفتها ، وقد هزهما الحادث كثيراً .. وعلم بيشو أن مأمور الحى وشرطيين قد خرجوا من البيت، وأن قاضى التحقيق قد انتهى من تحقيق مبدئى .. وقال يخاطب بارنيت :

ـ يمكننا أن تنتهز الفرصة الآن حيث لا يوجد أحد .

واستطرد يقول وهما يصعدان :

ـ هذا بيت قديم لايزالون يحتفظون فيه بتقاليد الماضى ، فالباب ، يبقى مثلاً مغلقاً دائماً ولايمكن لأحد أن يدخله إلا بعد أن يقرعه .. يقيم فى الطابق الأول قسيس ، وفى الطابق الثانى قاضى ، وتقوم زوجة البواب بخدمتهما .. أما أولجا فتقطن فى الطابق الثالث وتعيش حياة محترمة بين أمها وخادمتها المتقدمين فى السن واللتين أشرفتا على تربيتها .

فتح الباب لهما .. وقال بيشو : تقع غرفة أولجا ومخدعها على يمين الرواق ، وعلى اليسار غرفتى الأم والخادمتين ، وأمام الرواق ستوديو للرسم تحول إلى قاعة للرياضة ، بها عمود مثبت وأرجوحة وحلقات وأدوات كثيرة متفرقة بين المقاعد والأريكة .

وما أن دخلا تلك القاعة حتى هبط شئ من الفتحة الزجاجية التى يدخل منها نور النهار .. وكان ذلك الشئ شاباً وسيماً يغطى رأسه

شعر أشقر أشعث ، وتحت بيجامته المشدودة حول جسده عرف بارنيت أولجا فوبان وصاحت على الفور بلهجة ريفية :

ـ أمى تتمتع بصحة جيدة كما تعلم يابيشو .. وهى نائمة الآن .. إن أمى العزيزة لمحظوظة حقاً .

وقامت بحركة رياضية فارتكزت برأسها فوق الأرض ، ورفعت قدميها فى الفضاء وراحت تغنى بصوت رنان، مثير ومبحوح "ايزيدور يحبنى ولكننى أحب جيم" .

وقالت وهى تنهض : وأحبك أنت أيضاً ياعزيزى بيشو .. نعم ، جميل منك أن أتيت بهذه السرعة .

وقدم بيشو زميله قائلاً :

ـ صديقى .. جيم بارنيت .

وكان يحاول أن يتمالك نفسه ولكن عينيه الزائغتين وحركاته العصبية كانت تنم عن اضطرابه وبلبلته .. وقالت :

ـ حسنٌ .. سوف تكشفان معا غموض هذه المسألة ، وتعيدان إلى غرفة نومى ، فهذا من اختصاصكما .. آه .. وأقدم لكما بدورى دل بريجو، أستاذ الرياضة التدليك وفنون المكياج ، وهو فى نفس الوقت تاجر منتجات التجميل الذى يحظى بشهرة كبيرة فى عالم المسرح ، والذى لامثيل له فى إعادة الشباب وتعليم الحركات البهلوانية .. دل بريجو .

انحنى دل بريجو .. كان عريض الكتفين ، نحاسى البشرة ، له وجه بشوش لمهرج عجوز ويرتدى ثياباً سمراء وزوجان من القفازات البيضاء اللون وقماطا أبيض ويمسك فى يديه قبعة من اللباد ذات لون فاتح ، وراح يلوح على الفور ويلثغ بالراء ويمزح باللغة الفرنسية التى

يتكلمها بلكنه أجنبية كلمات أسبانية وإنجليزية وروسية ، وأراد أن يعرض طريقته فى تعليم الحركات الرياضية البهلوانية ، ولكن أولجا قاطعته قائلة :

ـ لايجب أن نضيع الوقت . ماهى المعلومات التى تريدها يابيشو ؟

قال بيشو : دعينا ، قبل كل شئ نرى غرفتك .

ـ حسناً .. هلموا بنا إليها .

ووثبت مرة واحدة وتعلقت بالأرجوحة ، ودفعتها هذه إلى الحلقتين وأسرعت بالهبوط منهما أمام باب وقالت :

ـ ها نحن بها .

كانت الغرفة عارية تماماً .. لافراش ولامفروشات ولاستائر ولا لوحات ولامرايا ولاسجاد ولاتحف .. ولم يعد فيها شئ على الإطلاق غرفة عارية أفرغها اللصوص من كل شئ .

وراحت تقهقه ثم قالت : ما رأيكما ؟ أنهم أخلوها من كل ما كان فيها ، بل إنهم أخذوا أدوات التجميل وفرشاة الشعر ، ويخيل إلى أنهم اخذوا منها كل ما كان فيها من غبار .. كنت أعتز جداً بغرفتى .. فهى من طراز لويس الخامس عشر .. اشتريت مفروشاتها قطعة قطعة .. الفراش سبق أن رقدت فيه مدام دى بومبادور .. وأربع لوحات لبوشيه وطاولة تاريخية .. وروائع .. ابتعتها كلها بنقودى التى ربحتها فى جولتى بأمريكا .

وقامت بحركة بهلوانية عنيفة ، شديدة الخطر ، ثم هزت شعرها وصاحت فى مرح :

ـ ولكن لابأس .. سأبتاع غيرها ، فأنا ، بفضل عضلاتى المرنة وصوتى المبحوح ، ولا أعانى من أية ضائقة .. ولكن ماذا بك لكى

تنظر إلى هكذا يابيشو ؟ يخيل إلى دائماً أنك ستقع عند قدمى مغمى عليك .. تعالى لكى أقبلك ثم ألقى على ما تشاء من أسئلة ، ولنفرغ من الأمر قبل قدوم رجال النيابة .

قال بيشو : اذكرى لنا ماحدث .

قالت : ليس هناك الكثير ، إليك ما حدث فى منتصف الساعة العاشرة مساء أمس .. ويجب أن أقول لك أننى قد خرجت من الساعة الثامنة مع دل بريجو ، فقد رافقتنى إلى الفولى برجير بدلاً من أمى ، لأنها كانت مشغولة فى غزل الصوف .. دقت الساعة معلنة النصف بعد التاسعة عندما صدرت حركة فى غرفتى ، فأسرعت أمى إليها ، وعلى ضوء مصباح كهربى أنطفأ على الفور رأت رجل يفك الفراش ، وأخر انقض فوق رأسها وألقاها أرضاً فى حين أحاط الأول رأسها بمفرش ، ثم قام بنقل كل ما فى الغرفة .. ولم تتحرك أمى ولم تصرخ حتى سمعت سيارة كبيرة تنطلق فى الشارع ثم أغمى عليها .

قال بيشو : بحيث أنك عندما عدت من الفولى برجير ..

ـ وجدت الباب العمومى للبيت مفتوحاً ، وباب مسكنى مفتوحاً هو الأخر ، وأمى مغمىً عليها ، ولاتسل عن دهشتى عندئذ .

ـ والبواب وزوجته ؟

ـ أنت تعرفهما .. أنهما متقدمان فى السن ، ويقيمان هنا منذ ثلاثين سنة ولايزعجهما أى زلزال .. لايوقظهما شئ غير جرس الباب ، وهما يقسمان أن ما من أحد طرق الباب منذ أن أويا إلى فراشهما فى الساعة العاشرة مساء حتى الثامنة صباحاً .

قال بيشو : ونتيجة لذلك لم يرفعا السقاطة التى تفتح الباب .

ـ هو ذلك .

- والسكان الأخرون ؟

- لم يسمعوا شيئاً هم أيضاً .

- وأذن ؟

- وأذن ماذا ؟

- أعنى ما رأيك فى ذلك يا أولجا .

احتدت المرأة الشابة قائلة :

- إن أمرك عجيب .. وهل من شأنى أن يكون لى رأى ؟ إنك لتبدو حقاً غبياً كرجل النيابة .

قال فى ارتباك : ولكننا لم نبدأ بعد .

- ألا يكفيك كل ما ذكرت لك كى تجلو الأمر ؟ إذا كان المدعو بارنيت غبياً مثلك فلا أمل فى عودة فراشى الذى رقدت عليه مدام دى بومبادور .

تقدم المدعو بارنيت وسألها :

- فى أى يوم تريدين عودة فراش مدام بومبادرو ؟

قالت : ماذا تقول ؟

ونظرت فى دهشة إلى الرجل المضحك .. ولم تكن قد أعارته أى اهتمام ، ولكنه عاد يقول فى غير كلفة :

- أريد أن أعرف اليوم والساعة التى تريدين فيها عودة فراشك وكل مفروشات غرفتك .

- ولكن ..

- فلنحدد التاريخ .. اليوم يوم الثلاثاء .. هل يوافقك يوم الثلاثاء القادم ؟

نظرت إليه بعينين مستديرتين متسعتين ، وبدت كأنها تختنق .

ما معنى هذا الاقتراح الغريب ؟ أتراه يمزح أم يتبجح .. وفجأة انفجرت ضاحكة وقالت :

ـ هذا رجل مضحك حقاً ! من أين أتيت بصديقك هذا يابيشو ؟ أسبوع ! لكأن فراشى فى جيبه .. وهل تظن أننى سأضيع وقتى مع رجلين غبيين مثلكما ؟؟!

ودفعتهما حتى الرواق وهى تقول :

ـ هيا أغربا عن وجهى .. لا أريد أن أراكما بعد اليوم ، فلا أحب أن يهزأ بى أحد .. إنكما لمازحين غريبين !

وأغلقت باب الأستوديو فى عنف .. وغمغم بيشو بأسى :

ـ ولكن لم تمر بنا هنا أكثر من عشر دقائق .

فحص بارنيت الرواق فى اهتمام كبير وهو يلقى بعض الأسئلة على إحدى الخادمتين المتقدمتين فى السن .. وعندما هبطا السلم ، دخلا غرفة البواب وزوجته، واستجوبهما أيضاً ، وعندما خرج وثب إلى سيارة أجرة كانت تمر بهما وذكر عنوان مكتبه للسائق فى حين وقف بيشو على الرصيف مذهولاً .

وإذا كان لبارنيت أى تأثير على بيشو فقد كان تأثير أولجا عليه أكثر بكثير، ورأى من تلك المقابلة أن بارنيت لم يتخلص من الارتباك إلا بوعد لايمكن إلا أن يكون نوعا من التهريج .

وتأكد بيشو من ذلك فى اليوم التالى ، عندما مضى إلى مكتب بارنيت ووجده جالساً يدخن وقدماه فوق مكتبة .. وصاح به محنقاً :

ـ إذا كنت تهتم بالأمر هكذا فسوف نتخبط تماماً .. ورغم أننى بذلت كل جهدى فإن رجال النيابة لايفهمون شيئاً ، ولا أنا على كل

حال .. إننا متفقون طبعاً فى بعض النواحى، ومثال ذلك أنه من المستحيل دخول البيت ولو عن طريق مفتاح مصطنع إذا لم يفتح أحد الباب من الداخل .. وحيث أنه لايوجد من يمكن الاشتباه فيه فى الداخل ، باشتراكه فى الأمر فقد انتهينا إلى هذين الاستنتاجين الحتميين ، وأولهما أن أحد اللصوص كان بالداخل فى نهار اليوم السابق ، وأنه فتح الباب لشريكة .. وثانيهما أنه لم يستطع الدخول دون أن يراه البواب وزوجته حيث أن باب البيت يبقى مغلقاً دائماً .. ولكن من الذى دخل ؟ ومن الذى ساعده على الدخول ؟ سر مستغلق .. إذن ..

ولكن بارنيت لم يخرج عن صمته .. بدأ غريبا تماما عن تلك المسألة .. واستطرد بيشو :

ـ وقد وضعوا قائمة بالأشخاص الذين دخلوا بالأمس .. وأكد البواب وزوجته أن كل شخص دخل فى تلك اليوم خرج ثانية .. وإذن فليس هناك أى أثر .. والسرقة التى تمت بوسائل بسيطة وبجرأة كبيرة لاتزال سراً مستغلقاً ، فما رأيك فى كل ذلك ؟!

تمطى بارنيت ، وبدا أنه يعود إلى عالم الواقع وقال :

ـ أنها جميلة ..

ـ من ؟ ماذا ؟ من هى الجميلة ؟

ـ زوجتك .

ـ ايه ؟ .

ـ جميلة فى الحياة وعلى المسرح.. نشاط وحيوية .. حيوية مفرطة ! فتاة باريسية حقاً ، وهى فوق ذلك رشيقة وفاتنة .. وفكرة إنفاقها مدخراتها لشراء فراش بومبادور فكرة ظريفة .. أنت غير محظوظ ..

حقاً يابيشو .

غمغم هذا الأخير :

هو ذلك .. وقد تخلى عنى الحظ منذ وقت طويل .

ـ وكم استمر هذا الحظ .

ـ شهر واحد .

ـ وأنت تشكو وتتذمر ؟

وعاد بيشو يوم السبت إلى المكتب ووجد بارنيت يدخن ويفكر ، ولم يرد عليه .. وظهر بيشو أخيرا يوم الاثنين وقد ثبطت همته ، وقال مزمجراً :

ـ ليس هناك أى أمل .. إن كل هؤلاء الناس هناك أغبياء .. وفى أثناء ذلك لابد أن فراش مدام دى بومبادور وغرفة أولجا تهرب إلى مكان ما لترسل منه إلى الخارج وتباع ذات يوم .. وماذا أبدوا أنا فى عينى أولجا ؟ غبى !

ونظر إلى بارنيت ، وكان هذا الأخير يتابع بعينيه حلقات الدخان المتصاعد من سيجارته حتى سقف الغرفة فاحتد قائلاً :

ـ وهكذا .. نحن ننازل خصوماً أشداء لم نلتق بمثلهم قبل اليوم .. أناس يتصرفون بطريقة خاصة ، خدعة دقيقة بحيث لايتركون وراءهم أى أثر .. والظاهر الذى لاشك فيه أنهم أدخلوا شريكا فى البيت وأنت لاتحاول حتى اكتشاف هذه الخدعة .

قال بارنيت : إن فيها شيئاً يروقنى أكثر من أى شئ أخر .

قال بيشوا : ماذا ؟

ـ طبيعتها، وتلقائيتها .. لاتصنع فيها ولارياء .. إن أولجا تنطق بما يخطر على بالها ، وتتصرف طبقاً لغريزتها، وتعيش كما يحلو لها ..

وأعود فأكرر لك يابيشو أنها امرأة حلوة .

هوى بيشو بقبضته على المكتب بقوة وقال :

ـ هل تعرف رأيها فيك ؟ غبى ! وعندما تتكلم عنك مع دل بريجو يضحكان بملء فيهما .. بارنيت المغفل .. بارنيت المتفاخر !

تنهد بارنيت وقال :

ـ هذه صفة بغيضة .. ما العمل لكى لا أستحقها ؟

ـ إن غداً يوم الثلاثاء .. يجب أن نعيد إليها الفراش مدام بومبادور كما وعدتها .

ـ سحقا لك .. ولكننى لا أعرف أين يوجد .. أما تنصحنى بشئ يابيشو .

ـ أنصحك بأن تقبض على اللصوص ، ستعرف الحقيقة منهم .

قال بارنيت : ليس هذا بالعمل الهين يابيشو .. هل معك أمر بالقبض ؟

ـ نعم .

ـ وهل لديك رجال تحت تصرفك ؟

ـ ما على إلا أن أتصل بإدارة الأمن بالتليفون .

ـ اتصل الآن وأطلب أن يبعثوا إليك برجلين قويين بجوار اللوكسمبورج ، على مقربة من الأوديون .

أجفل بيشو وقال : هل تسخر منى ؟

ـ أبداً .. ولكن هل تظن أننى أريد أن يخطر لأولجا أننى مغفل .. ثم ، أليس من عادتى الوفاء بوعودى دائماً .

فكر بيشو بضع دقائق .. أحس فجأة بأن بارنيت يجد فى قوله

وأنه لم يكف عن التفكير فى اللغز طوال الأيام الستة وهو جالس فى مقعده .. ألم يسبق أن قال مراراً أن هناك حالات من الأوفق قتلها تفكيراً وتمحيصاً بدلاً من إضاعة الوقت فى تحقيق لاطائل منه ؟

ومن غير أن يطيل التفكير، اتصل بصديق له يدعى ألبير، فى إدارة الأمن ، وهو فى نفس الوقت المساعد الأمين لرئيس الأمن. وتم الاتفاق على إرسال رجلين بجوار مسرح الأوديون .

ونهض بارنيت متأهباً للخروج .. وكانت الساعة قد بلغت الثالثة ، وخرجا .. وسأله بيشو :

- هل نذهب إلى الحى الذى تقيم فيه أولجا ؟

- بل إلى بيتها بالذات .

- ولكننا لن نمضى إلى مسكنها ؟

- بل إلى غرفة البواب وزوجته .

والواقع أنهما جلسا فى غرفة البواب ، بعد أن أوصى بارنيت البواب وزوجته أن لاينطقا بكلمة واحدة وأن لايفعلاماينم عن وجوده وبيشو فى الغرفة .. جلسا خلف ستار .. وكان فى مقدور كل منهما أن يرى كل من يدخل أو يخرج .

خرج القسيس الذى يقطن بالطابق الأول ، ثم خرجت إحدى خادمتى أولجا وفى يدها سلة لابتياع بعض لوازم البيت .. وتمتم بيشو :

- من الذى ننتظره بحق الشيطان ؟ وما هو هدفك ؟

- هدفى أن أعلمك مهنتك .

- ولكن ؟

- اسكت ..

دخل دل بريجو فى الساعة الثالثة والنصف وهو يرتدى قفازه الأبيض وقماطه الأبيض هو الآخر، وبدلة سمراء فاتحة اللون .. وأشار إلى البواب وزوجته محيياً .. كانت ساعة بدء الدروس الرياضية اليومية .

وبعد أربعين دقيقة خرج من جديد ومعه علبة سجائر ابتاعها .. قفاز أبيض وطباق أبيض .

ثم دخل ثلاثة أشخاص آخرون .. وهمس بيشو فجأة :

- أظنه خرج من الباب .

قال بيشو فى شئ من التردد : لا أظن .. إلا إذا كنا لم نرقب الباب جيداً .. ما رأيك يابارنيت ؟

أبعد بارنيت الستار وقال : أرى أن وقت العمل قد حان ..

امض وابحث عن رجليك يابيشو .

- هل أتى بهما هنا ؟

- نعم .

- وأنت ؟

- سأصعد .

- هل تنتظرنى ؟

- لماذا ؟

- ولكن ماذا هناك ؟

- سوف ترى .. رابطوا ثلاثتكم فى الطابق الثانى .. وسوف أدعوكم .

- سوف تبدأ العمل إذن ؟

ـ حتى النهاية .

ـ ضد من ؟

ـ ضد رجال لا تنقصهم الجرأة .. أسرع .

أسرع بيشو بالخروج .. وصعد بارنيت الطوابق الثلاثة كما قال .. وطرق الباب ودخل إلى غرفة الرياضة حيث كانت أولجا تنتهى من دروسها تحت مراقبة دل بريجو .. وصاحت وهى فوق سلم من الحبال :

ـ آه .. من أرى .. مسيو بارنيت العنيد .. حسناً يامسيو بارنيت .. هل تأتينى بفراشى ؟

تقريباً ياسيدتى .. ولكن أرجو أن لايزعجك حضورى .

ـ بل على العكس .

وبخفة عجيبة ودون أن تحفل بالخطر قامت ببضع حركات صعبة تلبية لإرشادات دل بريجو .. وكان هذا الأخير يشجعها وينتقدها ويعطيها المثل أحياناً ، فقد كان هو نفسه رياضياً قديراً ، وإن كان أكثر عنفاً .. وكان يبدو أنه يريد أن يظهر براعته .

عندما انتهى الدرس لبس سترته وزرر طماقة الأبيض ، وأخذ قفازه الأبيض ، وقبعته الفاتحة اللون ، وقال :

ـ سوف نلتقى هذا المساء فى المسرح يامدام أولجا .

ـ ألن تنتظرنى اليوم إذن يادل بريجو ؟ كان يجب أن ترافقنى لأن أمى غير موجودة .

ـ لايمكننى ذلك ، فلدى دروس قبل العشاء .

ومضى نحو الباب ، ولكنه مضطر إلى أن يتوقف ، فقد كان بارنيت بين الباب وبينه .. وقال بارنيت :

ـ اسمح لى ببضع كلمات فحسب أيها السيد العزيز ، مادام الحظ قد أسعدنى بلقائك .

ـ أنا أسف حقاً ، فإننى .

ـ هل يجب أن أقدم نفسى ثانية .. أنا جيم بارنيت ، مخبر خاص بمكتب بارنيت وشركاه ، وصديق لبيشو .

تقدم دل بريجو خطوة إلى الأمام وهو يقول :

ـ أرجو المعذرة أيها السيد ، فإننى على عجل من أمرى .

ـ أوه .. دقيقة واحدة لا أكثر ريثما تستعيد ذكرياتك .

ـ بخصوص من ؟

ـ بخصوص رجل تركى .

ـ تركى ؟

ـ نعم ، ويدعى بن فالى .

هز الأستاذ رأسه وقال :

ـ بن فالى ؟ لم أسمع عن هذا الاسم أبداً .

ـ ربما سمعت عن رجل يدعى أفيروف ؟

ـ لم أسمع عنه هو الآخر .. من هذان السيدان .

ـ قاتلان .

ساد صمت قصير ثم ضحك دل بريجو وقال :

ـ هذا نوع من الرجال لا أحب الاختلاط به .

قال بارنيت : بل يزعم بعضهم أنك تعرفهما حق المعرفة .

نظر دل بريجو إليه من قمة رأسه إلى اخمص قدميه وغمغم :

ـ ما معنى كل هذا ؟ وضح ما تقول ، فإن الألغاز لا تروق لى .

ـ أجلس يامسيو دل بريجو .. سوف نتكلم بحرية أكثر .

أتى دل بريجو بحركة تدل على نفاذ صبره .. وكانت أولجا قد اقتربت من الرجلين .. جميلة وفضولية وصغيرة جداً فى ثوبها الرياضى .. وقالت :

ـ اجلس يادل بريجو .. ولاتنسى أن الأمر يتعلق بفراش مدام دى بومبادور .

قال بارنيت :

ـ صدقنى يامسيو دل بريجو أننى لا أقدم لك أى لغز ، ولكن منذ زيارتى الأولى هنا ، بعد السرقة، لم أكف عن تذكر حقيقتين مختلفتين كثر الحديث عنهما فى حينهما ، وأحب أن أعرف رأيك فيهما .. وتكفينى بضع دقائق .

ولم يعد بارنيت يتكلم بطريقته العادية كتابع لبيشو ، وإنما اتخذت لهجته سمة آمرة بحيث لايمكن إلا الخضوع لها .. ودهشت أولجا كل الدهشة .. واضطر دل بريجو أن يذعن وقال مزمجراً :

ـ أسرع إذن .

وبدأ بارنيت حديثه فقال :

ـ منذ سنوات ارتبط جوهرى يقيم فى مسكنه مع أبيه فى الطابق العلوى بمبنى فى قلب باريس ، بعلاقة عمل مع رجل يدعى بن فالى ، يرتدى عمامة وزياً تركيا بسروال فضفاض ، ويتاجر فى الأحجار الكريمة من الدرجة الثانية .. ياقوت أصفر شرقى ولؤلؤ غير متناسق وأحجار نفيسة وغيرها .. ومساء يوم صعد بن فالى مرارا إلى سكن الجوهرى .. وعاد هذا الأخير من المسرح ووجد أباه قتيلاً بطعنة

خنجر وخزانات المجوهرات فارغة تماماً .. وأسفر التحقيق عن أن الجريمة لم يرتكبها بن فالى بنفسه، لأنه أثبت أنه كان فى مكان أخر وقت ارتكاب الجريمة، ولكن ارتكبها شخص أخر أدخله بن فالى البيت بعد الظهر .. وقد تعذر القبض على ذلك الرجل ، واختفى التركى بدوره .. وحفظت القضية .. فهل تتذكرها يامسيو دل بريجو ؟

قال دل بريجو :

- لم أت إلى باريس إلا منذ سنتين .. ثم أننى لا أرى الصلة .

استطرد جيم بارنيت يقول : وكانت جريمة أخرى قد ارتكبت بنفس الأسلوب .. والقتيل من هواة الأوسمة ويدعى مسيو دافول ، وأدخل القاتل رجل روسى يدعى الكونت أفيروف ، وأخفاه فى المسكن .

قالت أولجا فوبان وقد امتقع وجهها جدا :

- إننى أتذكر هذه الجريمة .

وأستأنف بارنيت حديثه قائلاً :

وعلى الفور لم أر فى هاتين الجريمتين وسرقة فراش مدام بومبادور تماثلاً عجيباً فحسب وإنما مشابهة شبه عائلية بالذات فإن سرقة مجوهرات مسيو سورو التى ارتكبها بن فالى وسرقة أوسمة مسيو دانول تمتا بواسطة رجلين أجنبيين ، بنفس الطريقة التى نجدها هنا ، أى بإدخال مسبق لشريك أو شريكين للقيام بالسرقة .. ولكن ما هى السمة المميزة لهذه الطريقة ؟ هذا ما لم أره لأول وهلة ، وهذا ما أرهقت نفسى فى التفكير فيه طوال أيام فى مكتبى .. وبهذين العنصرين اللذين عرفتهما وهما جريمة بن فالى وجريمة افيرون ، كان لابد من إثبات فكرة عامة قوامها طريقة خاصة دبرت بها هاتان الجريمتان وربما جرائم أخرى لا أعرفها .

سألته أولجا فى اهتمام : وهل أفلحت ؟

أجاب بارنيت :

ـ نعم ، وأعترف أنها فكرة جميلة ، فيها فن ، وأنا خبير فى كل ما يمت بالفن .. فن كبير حقاً .. فبينما يتصرف رعاع اللصوص والقتلة سراً ويتسللون إلى الأماكن المراد سرقتها خفية أو يرسلون مسبقاً بعض السباكين أو العمال للتعرف على تلك الأماكن ، يعمد هؤلاء إلى طريقة أخرى ويعملون جهاراً وهم رافعوا الرؤوس .. وكلما وقعت عليهم الأبصار كلما كان ذلك أفضل ، فهم يدخلون البيت علانية بعد أن يصبحوا من المألوفين والمترددين عليه ، ثم ، وفى اليوم المحدد يخرجون ، ثم يعودون من جديد ، وثم .. وعندما يصبح رئيس العصابة فى الداخل فإن رجلاً آخر يدخل .. رجل غير الذى رأوه يدخل ويخرج ، ولكن له نفس مظهره وهيئته بحيث يخطر لمن يراه أنه هو .. أليس هذا بديعاً .

خاطب بارنيت دل بريجو بهذه العبارة الأخيرة ، ثم استطرد :

ـ هذه عبقرية .. نعم ، عبقرية يا دل بريجو .. أعود فأقول أن رجلاً أخر يقوم بالعملية وهو يحاول أن لايفطن إليه أحد، كلص الفنادق ، مرتدياً نفس الزى المحايد ، وبنفس الطريقة التى لاتستلفت الأنظار ، رغم حرصهم على أن يراهم الجميع .. فإذا دخل روسى يرتدى زياً معيناً، وإذا دخل تركى يرتدى هو الآخر زياً معيناً فلن يخطر لأحد أنه دخلا أكثر مما خرج .. ولكن الشريك هو الذى يدخل فى المرة الخامسة ، ولايرقى الشك إلى أحد .. هذه هى الطريقة ، واننى أحيى الذى ابتكرها ونفذها ، لأنها تدل على عبقرية وأستاذية ، ولكن بالنسبة لى أنا فإن بن فالى والكونت أفيروف ما هما إلا شخص واحد ، أو ليس عندنا الحق عندئذ فما أن تتساءل من الذى دخل ثالث

مرة تحت مظهر ثالث فى القضية التى تشغلنا .. روسى أولا ثم تركى ثانياً ، ثم .. من الذى نراه هنا فى صورة أجنبى بتلك الصورة المميزة ؟

وأمسك ، وأرتسم السخط على أولجا ، فقد أدركت على الفور ما يعنيه بارنيت منذ أن بدأ حديثه واحتجت قائلة :

ـ كلا ، كلا .. أن فى حديثك هذا تلميحاً لايمكن إلا أن يثير حنقى .

ابتسم دل بريجو وقال متسامحاً :

ـ دعيه يتكلم يا مدام أولجا .. أن مسيو بارنيت يحلو له أن يلهو .

قال بارنيت : هو ذلك يا دل بريجو.. اننى ألهو ، وأنت على حق تماماً فى أن تهتم بمغامرتى الأخيرة ، على الأقل قبل أن تعرف نهايتها .. طبعا، أنا أعلم تماماً أنك أجنبى ، وترتدى ثيابك بطريقة تلفت النظر .. قفاز أبيض وطماق أبيض .. ووجهك عبارة عن قناع متحرك يصلح لكل تغييرات ويساعدك أكثر من أى شئ أخر على أن تتبدل إلى روسى أو تركى أو غنى يعيش عيشة بذخ ، ولايعرف له مورد رزق .. وأنت بالطبع من المترددين على البيت ، يمكنك الدخول والخروج عدة مرات فى اليوم .. ثم إن سمعتك كرجل شريف لايمكن الطعن فيها، وأولجا فوبان ضامنة لك، ولهذا لامجال أبداً لأتهامك .. ولكن ما العمل ؟ هل تفهم ارتباكى ؟ كنت أنت المجرم الوحيد الممكن ، ولكن لايمكن أن تكون الجانى ، أليس كذلك يا أولجا فوبان ؟

قالت وعيناها تلمعان من الحمى والقلق :

ـ كلا .. كلا .. إذن من تتهم ؟ .. وأية طريقة تستخدم .

ـ طريقة بسيطة جداً .

ـ وما هى ؟

- هى اننى نصبت فخاً .

- نصبت فخاً ؟ وكيف ذلك ؟

سألها جيم بارنيت ألم تتلق مساء أمس مكالمة تليفونية من البارون لورنز ؟

- نعم .. هذا صحيح .

- وقد جاء لزيارتك أمس ؟

- نعم ، نعم ..

- وجاءك بصندوق ثقيل من الفضة عليه شعار مدام بومبادور .

- ها هو ، على هذه المنضدة .

- إن البارون لورينزو قد أفلس ويحاول أن يبيع هذا الصندوق الذى ورثه عن أجداده ، وتركه لديك حتى غدا الثلاثاء .

- وكيف عرفت ذلك ؟

- البارون هو أنا .. وإذن فقد عرضت هذه التحفة من الفضيات على من حولك ؟

- نعم .

- ومن ناحية أخرى تلقت أمك برقية من الريف تدعوها للذهاب إلى أختها المريضة ؟

- من أخبرك بذلك ؟

- أنا الذى أرسلت البرقية.. رحلت أمك صباح اليوم إذن ؟ وسيبقى صندوق الفضيات فى هذه الغرفة حتى صباح الغد ، وهذا إغراء كبير لكى يقوم بالمحاولة ويسرق الصندوق ، وهى سرقة قيمتها أكثر بكثير من قيمة الغرفة ومحتوياتها .

استولى الخوف فجأة على أولجا وصاحت :

ـ وهل ستتم المحاولة هذه الليلة ؟

ـ هذه الليلة كما هو مفروض .

قالت فى صوت متهدج : ولكن هذا فظيع .

وكان دل بريجو قد أصغى دون أن يتحرك فنهض وقال :

ـ ليس فى هذا أى شئ فظيع يامدام أولجا مادمت قد عرفت .. يكفى أن تبلغى البوليس ، وإذا سمحت فإننى سأنصرف الآن .

صاح بارنيت : كلا بالطبع .. فإننى بحاجة إليك يا دل بريجو .

ـ لا أرى فيم أستطيع أن أفيدك .

ـ كيف ذلك ؟ ولكن فى القبض على الشريك .

ـ أمامنا الوقت ، مادامت السرقة لن تقع إلا ليلاً .

ـ نعم .. ولكن لاتنسى أن الشريك قد تم إدخاله مسبقاً .

ـ أيكون قد دخل فعلاً ؟

ـ منذ نصف ساعة .

ـ هذا سخف .. أتعنى منذ حضورى ؟

ـ منذ قدومك للمرة الثانية .

ـ هذا أمر لايصدق .

ـ رأيته يدخل كما رأيتك أنت .

ـ إذن فهو مختبئ فى هذا المسكن ؟

ـ نعم .

ـ أين .

مد بارنيت أصبعه نحو الباب وقال :

ـ هناك يوجد فى الرواق دولاب مشحون بالثياب والملابس القديمة ولا يفتحه أحد بعد الظهر ، وهو مختبئ فيه .

ـ ولكنه لم يستطع أن يختبئ فيه بمفرده ؟

ـ كلا .

ـ ومن الذى فتح له ؟

ـ أنت يا دل بريجو .

كان من الواضح بالطبع ، منذ البداية ، أن كل كلمات بارنيت تشير إلى أستاذ الرياضة ، وإنها كلها الماحات محددة بالذات ، ومع ذلك فإن مفاجأة الهجوم أفزعت دل بريجو ، وارتسمت على وجهه شتى المشاعر التى تتضارب فيه ، والتى استطاع اخفاءها حتى الآن ، وهى الغضب والقلق وخمن بارنيت تردده وأسرع إلى الرواق وأخرج من الدولاب رجلاً دفعه إلى الأستوديو .

وصاحت أولجا :

ـ آه .. الأمر صحيح إذن .

كان الرجل له نفس قامة دل بريجو ، ومرتدياً مثل ثيابه تماماً، ونفس الوجه السمين القابل للتغير ، وقال بارنيت وهو يضع على رأسه قبعة فاتحة اللون ويناوله قفازا أبيض :

ـ أنك نسيت قبعتك وقفازك أيها السيد .

دهشت أولجا وراحت تبتعد خطوة خطوة دون أن تفارق بعينيها الرجلين ، وصعدت درجات السلم متقهقرة .. أدركت فجأة حقيقة دل بريجو ، والأخطار التى تعرضت لها بجواره .. وخاطبها بارنيت وهو يضحك :

ـ عجباً .. هذا غريب ! إنهما ليسا متشابهين كتوأمين .. ولكنهما متشابهان فى القامة والهيئة ولكل منهما وجه بهلوان عجوز ، وزيهما متشابه هو الآخر .. إنهما يبدوان كأخوين تماماً .

تغلب الشريكان على اضطرابهما شيئاً فشيئاً .. كان قويين وأمامهما على كل حال غريم واحد يبدو ضعيفاً ، وله مظهر موظف بسيط .. ونطق دل بريجو بعبارة أجنبية فقال بارنيت على الفور :

ـ لاداعى للتحدث باللغة الروسية لكى تسأل زميلك إن كان معه مسدس .

تميز دل بريجو من الغيظ وقال بضع كلمات بلغة أخرى فقال بارنيت :

ـ لاحظ لك فإننى أعرف التركية معرفة تامة .. ثم إننى أحب أن تعرف أن بيشو موجود فى السلم وأنت تعرفه، فهو زوج أولجا ، ومعه اثنان من رجاله .. وبمجرد سماعهم طلقة سيبادرون بالهجوم .

تبادل دل بريجو وزميلة نظرة .. أحسا بأنهما هالكين .. ومع ذلك فقد كانا من النوع الذى لا يقر بالهزيمة ، فاقتربا من بارنيت وهما متأكدان من قوتهما ، ولكن بارنيت صاح بهما :

ـ حسنا .. معركة ضارية بالأيدى .. وما أن تتغلبا على حتى تحاولا الهرب من بيشو.. حذار يا مدام أولجا .. ستشهدين الآن شيئاً عجبا عملاقان ينقضان على رجل نحيل .. هيا يا دل بريجو .. بأسرع من هذا .. هيا ، قليل من الشجاعة .. أمسك بتلابيبى .

كانت تفصل بينهم ثلاث خطوات .. وشدد الشقيان الضغط على أصابعهما وما هى إلا لحظة حتى أنقضا .. ولكن بارنيت كان أسبق منهما، فقد خفض رأسه نحو الأرض وأمسك بساقى كل منهما وأوقعهما أرضاً كما لو كانا تمثالين .. وقبل أن يتمكنا من الدفا ع عن

نفسيهما أحسا بأن رأسيهما سمرتهما يد بدت لهما قوية كما لو كانت كلابه حديد .. واختنقا وتخازلت سواعدهما ولم يستطيعا حراكا .. وقال بارنيت فى هدوء عجيب :

ـ أولجا فوبان .. تكرمى بفتح الباب واستدعاء بيشو .

وثبت أولجا من السلم واسرعت نحو الباب بقدر ما سمحت لها قوتها المتخاذلة وصاحت : بيشو .. بيشو ..

وعادت مع المفتش وكلها حماس وخوف فى نفس الوقت .. وقالت :

ـ قضى الأمر .. إنه شك فى حركتهما وحده .. ما كنت أتوقع هذا منه أبداً .

وقال بارنيت يخاطب بيشو :

ـ هاك زبوناك .. ما عليك إلا أن تضع الأصفاد فى أيديها حتى اتركهما يتنفسان المسكينين . كلا . لاتقسو عليهما يابيشو .. أؤكد لك أنهما سيلزمان الهدوء ، أليس كذلك يا دل بريجو ؟

ونهض ، وقبل يدا أولجا التى راحت تتأمله بإعجاب ثم صاح فى مرح :

ـ آه يابيشو .. إنه لصيد جميل .. وحشان من أكبر الوحوش الضارية .. وأشدها خبثاً ومكراً .. لك كل تهانئى يا دل بريجو للطريقة التى ابتكرتها .

وراح يغرز أصابعه المتوترة فى صدر الأستاذ . وكان بيشو يمسكه جيداً من قيده .. واستطرد يقول فى مرح متزايد :

ـ أقول أنها عبقرية .. منذ لحظات، عندما كنت مختبأ فى غرفة البواب ، حيث كنت أقوم بالمراقبة أنا وبيشو، وكنت قد عرفت خدعتك ، رأيت أن الذى دخل آخر مرة لم يكن أنت .. ولكن بيشو ، بعد لحظة

من الشك وقع فى الفخ واعتقد أن ذلك السيد ذا القفاز الأبيض والطماق الأبيض والقبعة الفاتحة اللون والبدلة السمراء هو دل بريجوا الذى رآه يمر أكثر من مرة ، الأمر الذى سمح لدى بريجو رقم ٢ أن يصعد بهدوء .. وأن يتسلل إلى داخل الدولاب ، تماماً كما فعلها فى الليلة التى اختفت فيها غرفة النوم فى جوف الظلام .. وتجرؤ فتقول أن هذه ليست عبقرية .

كان من الواضح أن بارنيت لم يعد يستطيع السيطرة على فرحته الغامرة .. ووثب وثبة كبيرة ألقى نفسه بعدها فوق الأرجوحة ، وانتقل منها إلى عمود ثابت وراح يدور حوله ثم أمسك بالحبل ووثب منه إلى الحلقات ، الواحدة بعد الأخرى ثم بالسلم، كل ذلك فى حركات أشبه بحركات قرد فى القفص .. ولم يكن هناك أغرب ولا أعجب من أطراف معطفه الطويل التى كانت تتطاير وتدور خلفه بطريقة مثيرة ومضحكة .

ووجدته أولجا وهى لاتزال فى أوج اضطرابها أمامها فجأة ، وقال :

- ضعى يدك على قلبى أيتها السيدة الجميلة .. إن النبض عادى تماما ، أليس كذلك ؟ ورأسى ؟ ولاقطرة عرق .

وأمسك بسماعة التليفون وطلب رقماً وقال :

- إدارة الأمن ؟ قسم الأبحاث إذا سمحت .. آه .. هذا أنت يا ألبير ؟

أنا بيشو.. ألاتعرف صوتى ؟ هذا لايهم .. أبلغ الإدارة بأن المفتش بيشو ألقى القبض على قاتلين دبرا سرقة مسكن أولجا فوبان .

ومد يده نحو بيشو وقال : كل المجد لك أنت يا صديقى العزيز .

أننى أحبيك يا سيدتى .. أراك تنظر إلى ببرود يا دل بريجو .

غمغم دل بريجو : أظن أنه لايوجد غير رجل واحد جدير بأن يخدعنى هكذا ..

- ومن هو ؟

- أرسين لوبين .

صاح بارنيت :

- أخيراً ! هذا تحليل رائع يا دل بريجو ، وسوف نذهب بعيداً إذا لم تفقد رأسك .. ولكنها ليست متماسكة فوق كتفيك .

وانفجر ضاحكا .. وحيا أولجا ، وخرج وهو يغنى : ايزيدور يحبنى ولكننى أحب جيم.

وفى اليوم التالى ضيق المحققون على دل بريجو وأرهقوه بالأدلة بحيث اضطر أن يعترف بأن المسروقات مخبوءة فى حظيرة فى الضواحى .. وكان اليوم يوم الثلاثاء، وهكذا بر بارنيت بوعده .

واضطر بيشو إلى السفر للأرياف وقضاء بضعة أيام فى مهمة رسمية وعندما عاد وجد رسالة من بارنيت هذا نصها :

"اعترف إننى كنت كريماً ، فأنا لم أجن صلدياً واحداً فى هذه القضية ، ولم أقتطع شيئاً لنفسى كما تخشى ومن ناحية أخرى فإن خير جزاء لى أن أحتفظ باحترامك وتقديرك .

وبعد ظهر اليوم مضى بيشو إلى مكتب بارنيت وفى نيته أن يقطع علاقته به ، ولكنه وجد المكتب مغلقاً وعليه هذه اللافتة :

مغلق بسبب الحب

سيفتح من جديد بعد شهر العسل .

وزمجر قائلاً وهو يشعر ببعض القلق :

ـ ما معنى هذا بحق الشيطان !

وأسرع إلى أولجا فوجد المسكن مغلقاً هو الآخر، وهرع إلى الفولى بيرجير فقيل له أن الفنانة الكبيرة دفعت تعويضاً كبيراً وفسخت عقدها ورحلت فى أجازة ، وخرج إلى الشارع وهم يغمغم :

ـ يا للشياطين ! أيمكن هذا ؟ بدلاً من أن يقتطع لنفسه نقوداً انتهز انتصاره وسمح لنفسه بإغراء .

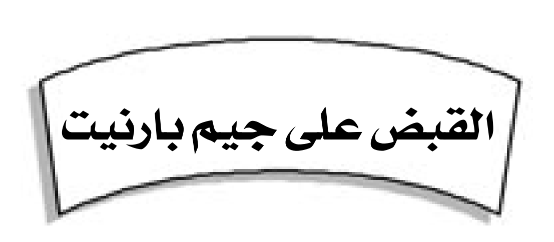
شئ فظيع ، ويأس لامثيل له .. ولكن كيف يعرف ، أو بالأحرى ، كيف يتصرف لكى لايعرف ولايحصل على يقين يخشاه أكثر من أى شئ ؟!

ولكن مما يؤسف له أن بارنيت لم يرحم فريسته ، فقد تلقى بيشو مراراً كثيرة بطاقات بريدية مصورة وعلى كل منها عبارة كلها حماس جنونى !

" آه يابيشو ! يا لضوء القمر فى روما ! إذا حدث وأحببت يابيشو فاذهب إلى صقلية .

وكان بيشو يصر على أسنانه ويقول : أيها الوغد .. إننى غفرت لك كل شئ إلا هذا، فلن أغفره لك أبداً .. وسوف أنتقم سريعاً .





دخل بيشو إدارة الأمن ، واجتاز ممرات وارتقى سلالم ، وفتح باباً من غير أن يطرقه واندفع نحو رئيسه المباشر ، وقال وقد انقلبت سحنته من فرط الانفعال :

ـ أن جيم بارنيت ضالع فى قضية ديروك ، رأيته أمام بيت النائب ديروك بعينى هاتين .

ـ جيم بارنيت ؟

ـ نعم .. المخبر السرى الذى كلمتك عنه مراراً أيها الرئيس والذى اختفى منذ بضعة أسابيع .

ـ مع الراقصة أولجا ؟

صاح بيشو وقد تملكه الغضب : نعم ، زوجتى السابقة !

ـ وبعد .

ـ إننى تعقبته .

ـ دون أن يدرى ؟

ـ أوه .. لايمكن لمن أتعقبه أن يشعر بذلك أبداً .. ومع ذلك فقد كان ذلك الشقى يتخذ احتياطاته ويتظاهر بأنه يتسكع .. دار بميدان الأتوال ، وسلك شارع كليبر، وتوقف فى ميدان تروكا ديرو، بجوار امرأة جالسة فوق دكة .. امرأة يبدو أنها من الغجر، جميلة الأطوار

بشالها الملون وشعرها الأسود الممشط على هيئة برنيطة .. وبعد دقيقة أو دقيقتين تبادلا الحديث همساً وهما يشيران ببصرهما أكثر من مرة إلى بيت واقع على ناصيتى شارع كليبر والميدان .. ثم نهض واستقل المترو .

- وأنت تتعقبه دائماً ؟

- نعم .. ولكن مر ترام على الخط المقابل لسوء الحظ فلم أجد الوقت لكى أستقل المترو بدورى .. وعندما عدت إلى الميدان كانت الغجرية قد اختفت .

- ولكن ذلك المنزل الذى أشارا إليه .. هل مضيت إليه ؟

- أننى أتيت منه الآن ياسيدى الرئيس .

وراح بيشو يتكلم وهو يشدد الضغط على كلماته فى زهو كبير :

- يقيم فى الطابق الرابع من ذلك البيت ، منذ أربعة أسابيع ، والد المتهم ، الجنرال ديروك ، وهو ضابط متقاعد ، أقبل من الريف ، كما تعرف ، لكى يدافع عن أبنه المتهم بالاختطاف والتعذيب والقتل .

وكان لقوله تأثيره وعاد الرئيس يقول :

- وهل رأيت الجنرال ؟

- أنه فتح لى الباب بنفسه ، وعلى الفور حدثته بالمشهد الصغير الذى رأيته .. ولم تأخذه الدهشة ، ففى اليوم السابق ، زارته امرأة بوهيمية ، وعرضت عليه خدماتها فى التنجيم والتنبؤ بالورق ، وطلبت ثلاثة آلاف فرنك .. وهى تنتظر رده اليوم فى ميدان التروكا ديرو ، فيما بين الساعة الثانية والثالثة ، وستصعد إليه عند أول إشارة منه .

- وماذا تعرض عليه ؟

- قالت له أنها ستعثر على الصورة الشهيرة وتأتيه بها .

هتف الرئيس : الصورة التى نبحث عنها عبثاً ؟

ـ هى بالذات، تلك التى ستنقذ النائب ديروك أو تدينه طبقاً لوجهتى نظر الاتهام والدفاع .

تلى ذلك صمت طويل ثم تمتم الرئيس كما لو يبوح بسر :

ـ أنت تعرف يابيشو مدى إهتمامنا بالحصول على هذه الصورة .

ـ أعرف ذلك .

ـ لايكفى أن تعرف ولكن يجب .. هل تسمع يابيشو .. يجب أن تقع هذه الصورة بين أيدينا قبل أن تحصل عليها النيابة .

وأردف يقول فى صوت أشد خفوتاً :

ـ البوليس أولاً .

أجاب بيشو فى نفس اللهجة الخطيرة :

ـ ستحصل عليها أيها الرئيس ، وسأسلمك البوليس السرى بارنيت فى نفس الوقت .

؟ ؟ ؟

قبل ذلك بشهر انتظر المالى فيراللدى ، أحد ملوك باريس ، بفضل ثروته وعلاقاته السياسية ، وجسارته ، ونجاح مشروعاته ، انتظر زوجته فى ساعة الغداء ، ولكنها لم تكن قد عادت بعد عندما هبط الليل ، ولم يرها أحد طوال الليل .. وقام البوليس بأبحاثه وتحرياته ، وثبت بالدليل القاطع أن كريستيان فيرالدى تخرج كل صباح من بيتها الكائن على مقربة من غابة بولونيا وتتنزه فى الغابة ، وأن رجلاً اقترب منها فى ممر مقفر وجرها إلى سيارة مغلقة وانطلق بها مسرعاً ناحية السين.. ولم يتبين أحد ملامح الرجل ، ولكن بدا أنه شاب ، وكان يرتدى معطفاً سميكاً أزرق اللون ، ويضع على رأسه قبعة سوداء ،

ولم يعرف عنه أحد شيئاً آخر .

وانقضى يومان ولم يسمع أحد عنها شيئاً .

ثم كانت المفاجأة ، فبعد ظهر أحد الأيام رأى بعض الرجال الذين يشتغلون على مقربة من شارع شارتر بباريس سيارة تنطلق بسرعة كبيرة ، ارتفعت فيها صيحات فجأة ، ثم شاهدوا أحد أبوابها يفتح وامرأة تلقى منه فى الفضاء .

وأسرعوا إليها على الفور .

وفى نفس الوقت صعدت السيارة فوق منحدر واندفعت بسرعة واصطدمت بشجرة وانقلبت ، وخرج منها رجل سليم لم يصب بشئ وعاد يجرى نحو المرأة .

كانت قد ماتت ، فقد اصطدمت رأسها بكتلة من الحجر .

ونقلت إلى قرية قريبة وأبلغوا المخفر .. ولم يتردد الرجل فى ذكر اسمه وقال انه النائب ديروك ، العضو المشهور بمجلس النواب ، وزعيم حزب المعارضة .. أما لمرأة القتيل فقد كانت هى مدام فيرالدى .

وبدأت المعركة على الفور ، عنيفة وشرسة ، من ناحية الزوج ، ولم تكن بأقل عنفاً وشراسة من ناحية النيابة ، وقد آثارها بعض الوزراء الذين يهمهم ضياع النائب ديروك .. لم يكن هناك أى شك فى حادث الاختطاف حيث أن جان ديروك كان يرتدى ثياباً زرقاء اللون وقبعة سوداء تماماً كالرجل الذى هاجم كريستيان فاليرى.. أما عن القتل ، فقد كانت شهادة الفلاحين قاطعة ، فقد رأوا ذراع الرجل وهو يدفع المرأة ، ويلقى بها إلى الخارج .. وطلبت النيابة رفع الحصانة البرلمانية عنه .

وتصرف جان ديروك تصرفاً زاد الاتهام ضده قوة ، فقد اعترف دون لف أو دوران بالاختطاف ، ولكنه كذب شهادة الفلاحين بكل قوة ، وقال أن مدام فيرالدى وثبت من العربة بنفسها ، وأنه بذل المستحيل لكى يمنعها من ذلك .

أما عن أسباب الانتحار، وعن ظروف الاختطاف ، وعما حدث أثناء اليومين الذى غابت فيهما ، وعن المناطق المرتادة ، والتطورات التى سبقت النهاية المأساوية فقد لزم الصمت التام .. ولم يستطع المحققون إثبات أين ومتى عرف مدام فيرالدى، أو إذا كانت هى قد عرفته بما أن مسيو فيرالدى ، المالى المعروف ، قال أنه لم يسبق له أن تعرف به .

وعندما ضيقوا عليه بالأسئلة أجاب :

ـ ليس لدى ما أقوله أكثر من ذلك ، ولكم أن تعتقدوا ما تشاءون ، وأن تفعلوا ما يروق لكم فلن أقول شيئاً مهما حدث .

ولم يحضر جلسة مجلس النواب .

وفى اليوم التالى ، عندما دق رجال البوليس بابه ، وبينهم بيشو ، فتح لهم بنفسه وقال :

أننى لى استعداد لأن أتبعكم أيها السادة .

وقاموا بتفتيش دقيق ، ووجدوا فى المدفأة ، بغرفة المكتبة رماداً عرفوا منه أنه أحرق أوراقاً كثيراً .. وبحثوا فى الأدراج ، وأفرغوا المنقولات ، وتصفحوا الكتب ، وحزموا رزماً من الأوراق ومن المستندات .

وكان جاك ديروك يتابع فى غير اكتراث ذلك التفتيش العجيب ، ووقع حادث واحد كان له تأثيره الشديد والعنيف ، فقد أبدى بيشو

ذكاء أكثر من زملائه وعثر فى علبة بها بعض الأوراق على لفافة رفيعة من الورق لم يفطن إليها أحد ، وهم بفحصها عندما هجم عليه جان ديروك وانتزعها من يده وهو يقول :

ـ أنت ترى تماماً أنه لا أهمية لها .. أنها صورة .. صورة قديمة انفصلت عن ورقتها الكرتون .

وكان أن تصرف بيشو بكل عنف وقوة إزاء اضطراب ديروك ، وغرابة العمل الذى أقدم عليه.. وأراد أن يسترد اللفافة ، ولكن النائب خرج وهو يجرى ، وأغلق الباب خلفه ، وأسرع إلى الغرفة المجاورة حيث يقوم بحراستها أحد حراس الأمن.. ولحق به بيشو وزملاؤه على الفور .. ودارت بينهم مناقشة حادة ، وفتشوا جيوب جان ديروك ، ولكن لفافة الورق التى تضم الصورة لم تكن معه .. واستجوبوا الحارس ، فقال أنه اعترض طريق الهارب .. أما عن المستند الذى يبحثون عنه فأنه لم ير شيئاً .. وألقى القبض على النائب واقتيد إلى السجن .

هذه هى المأساة فى خطوطها الرئيسية ، وقد أثارت ضجة كبيرة فى حينها (وكان ذلك قبل الحرب العالمية بقليل) بحيث أنه لاداعى لأن نذكر تفاصيلها التى لايجهلها أحد ، ولامراحل التحقيق التى لم تسفر عن شئ ، ولولا تدخل بيشو لظلت مستغلقة حتى يومنا هذا .. والأمر لايتعلق إطلاقاً بإماطة اللثام عن قضية ديروك ، وإنما بإظهار الحلقة الخفية التى تسببت فى معرفة نهايتها، وكذلك فى إنهاء الصراع الدائر بين بيشو وعزيمة البوليس السرى بارنيت .

فى تلك المرة كانت مع بيشو ، على الأقل ورقة رابحة كبيرة ، مادام قد أدرك لعبة بارنيت وأصبح يعرف الوسيلة التى سيعمل بها هذا الأخير ، ومادامت القضية ستدور فى نفس الأرض التى سيحتلها

بيشو .. والواقع أنه فى صباح اليوم الذى حدده له مدير البوليس بنفسه ، طرق باب الجنرال ديروك .

فتح له الباب خادم له كرش كبير، ويبدو من مظهره ، فى سترته الطويلة كما لو كان من موثقى العقود فى الأقاليم .. وأدخل بيشو ، ووقف المفتش من الساعة الثانية حتى الثالثة خلف نافذة ، وراقب ميدان تروكا ديرو .. ولكن الغجرية لم تأت ، لا فى ذلك اليوم ولا فى اليوم الذى يليه .. ويبدو أن بارنيت قد استراب فى الأمر

تشبث بيشو برأيه ، واتفق فى ذلك مع الجنرال ديروك ، وهو رجل نحيف ، طويل القامة ، بادى النشاط والعزم ، يحتفظ تحت سترته الرمادية بمظهر الضابط القديم ، وهو من هؤلاء الرجال المعروفين ببرودهم وصلابتهم، والذين لايكثرون الكلام ، ولكن تحت سورة بعض الانفعالات ، يحتدون ويتجادلون بكل عنف .. وكان شغفه الوحيد هو ابنه ، ولم يكن يشك فى براءته ، ومنذ أن وصل باريس وقد أعلن ذلك فى أحاديثه التى أثارت الرأى العام .

ـ إن جاك غير جدير بمثل هذا العمل الشرير .. وليس به غير عيب واحد وهو إفراطه فى نزاهته ، ولايتردد فى الإضرار بنفسه إلى حد إغفال مصالحه هو بالذات.. ولهذا فإننى أرفض أن أراه فى سجنه أو أن أتحدث إلى محاميه ، ولا أهتم بتردده وصمته .. ولم آت لكى أتفق معه وإنما لكى أدافع عنه ضد نفسه .. ولكل امرئ منا دواعيه ، وإذا كانت دواعيه أن يلتزم الصمت فإن دواعى أنا تقتضى منى أن أحافظ على أسم العائلة من أى تدنيس .

وصاح فى يوم ضيقوا عليه بالأسئلة :

ـ هل تريدون رأيى ؟ ها هو .. أقول دون أية مراعاة أن ابنى لم يختطف تلك المرأة ، وإنما تبعته طواعية .. وهو يلتزم الصمت لأنه لا

يريد اتهام امرأة ماتت ، وكانت له معها، على ما أعتقده علاقات وثيقة .. فلتبحثوا عن الحقيقة .

وكان هو يبحث بكل همة ونشاط ويقول لبيشو :

- أن لى فى كل مكان أصدقاء أقوياء وأوفياء، يتفانون فى استقصاء هذه القضية ، وهى قضية محدودة النطاق كما تعتقد أنت بالذات أيها المفتش مادام لاينقصنا ولاينقصك غير دليل واحد ، وهو الصورة الشهيرة .. كل القضية هنا ، بين المالى فيرالدى والخصوم السياسيين لابنى ، بمساعدة بعض وزراء الحكومة للعثور على المستند الذى يدينه .. وقد فتشوا البيت وقلبوا كل ما فيه ، وقدم فيرالدى مكافأة لمن يدله على مكانها .. فلننتظر .. ففى هذه الصورة سيكون لدينا الدليل الساطع على براءة ابنى .

أما بيشو فلم يهمه كثيراً ثبوت براءة الابن أو عدم ثبوتها ، فقد كانت مهمته قاصرة على العثور على الصورة .. وكان يعرف أنها إذا كانت تثبت براءة النائب العام ديروك فإن أعداءه سيعملون على إخفائها بالذات . ورأى من واجبه أن يكون يقظاً وأن ينتظر البوهيمية التى أبت أن تأتى .. وكان يترقب بارنيت الذى ظل مختفياً .. وراح يلاحظ حديث الجنرال ديروك ، وكان هذا الأخير، من ناحيته ، يروى مساعيه وآماله ومخاوفه .

وذات يوم ، بدأ فيه الضابط مستغرقاً فى التفكير ، خاطب بيشو قائلاً :

- انتهينا أنا وأصدقائى إلى الاعتقاد بأن الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يدلنا على اختفاء تلك الصورة هو حارس الأمن الذى اعترض أبنى يوم اعتقاله .. ولكن الغريب أن أحداً لم يذكر لنا أسم ذلك الحارس ، لقد جندته الفرقة التى ذهبت لتفتيش البيت واصطحبته

معهم من القسم الذى يعمل فيه لمعاونتهم .. فماذا حدث له ؟ لا أحد يعلم ، على الأقل بين زملائه .. ولكن السلطات العليا تعرفه ، ونحن نثق أيها المفتش أن ذلك الشرطى قد استجوب وأنه وضع تحت مراقبة دقيقة يومية .. ويبدو أنهم فتشوا بيته هو الآخر ، وبيت أسرته ، وأنهم فحصوا كل ملابسه وكل مفروشاته .. هل أستطيع أن أقول لك اسم المفتش الذى كلفوه بهذه المراقبة .. أنه المفتش بيشو ، الموجود أمامى هنا .

ولم يكذب بيشو الأمر ولم يعترف .. فصاح الجنرال :

ـ مسيو بيشو .. إن صمتك يؤيد معلوماتى ، وأنا واثق أن هذه المعلومات يجب أن تكون لها نتيجة .. ويجب أن تأتينى بذلك الشرطى .. أبلغ من له الحق بذلك ، وإذا ما رفض فسوف أرى ما يجب على أن أعمل .

وأبلغ بيشو ما طلب منه طواعية ، خاصة وأن خطته لم تنجح .. فماذا سيفعل بارنيت ، وما هو الدور الذى يقوم به فى هذه القضية ، فهو ليس بالرجل الذى يبقى مكتوف اليدين ، وسوف يجد نفسه أمامه فجأة ، بعد أن يكون الوقت قد فات .

وأعطته السلطات العليا تفويضاً مطلقاً .. وبعد يومين أدخل سيلفستر ، خادم الجنرال ، بيشو والشرطى ريمبورج ، وهو رجل شهم ، هادئ المظهر فى زيه الرسمى ومسدسه وعصاته البيضاء على جانبيه .

وكانت المقابلة طويلة ، ولم تسفر عن أية نتيجة مفيدة ، فقد كان ريمبورج قاطعاً ، وقال أنه لم ير شيئاً .. ومع ذلك فقد ذكر أمراً فهم منه الجنرال أنه يدين بوظيفته التى يشغلها إلى تدخل النائب ديروك وكان قد عرفه فى الجيش .

توسل الجنرال إليه وهدده ، وتكلم باسم ابنه ، ولكن ريمبورج لم يتأثر على الإطلاق، وقال أنه لم ير الصورة ، وأن النائب ديروك ، فى اضطرابه بالذات ، لم يعرفه .. وإذ أعيت الجنرال الحيل استسلم للواقع .. وقال له :

ـ أشكرك .. وأننى أريد أن أصدقك .. ولكن هناك فى علاقاتك مع ابنى مصادفة غريبة بحيث أننى أحتفظ بشكوكى .

ودق الجرس ، وقال لسيلفستر عندما أقبل :

ـ شيع مستر ريمبورج حتى الباب ياسليفستر .

خرج الخادم وحارس الأمن .. وتناهى إلى أسماع الجنرال وبيشو صوت باب الردهة وهو يغلق .. والتقت عيناً بيشو فى هذه اللحظة بعين الجنرال .. وخيل للمفتش أنه يرى فيها تعبيراً ساخراً.. وفرحة غريبة لايبررها أى شئ .. ومع ذلك .

وانقضت بضع لحظات ، وفجأة ، حدث شئ مذهل راح بيشو ينظر إليه فى غباء فى حين أن الجنرال راح يبتسم ، فقد تقدمت إلى الغرفة من الباب الذى ظل مفتوحاً هيئة غريبة .. عبارة عن زراعين يمشيان من كل جهة منها رأس مقلوبة نحو الأرض، ونصفها الأعلى مستدير ، فوقه ساقان رفيعان يهتزان نحو السقف .

واعتدلت الهيئة فجأة ، ودارت حول نفسها كالنحلة على طرف قدم يعتمد القدم الآخر عليه .. لم تكن تلك الهيئة غير سيلفستر وقد استولى عليه الجنون فجأة ، وراح يدور كما يفعل الدرويش ، وكرشه الكبير تهزه ضحكة تصعد من فم مفتوح كما لو كان قمعاً عريضاً .

ولكن ، أكانت تلك الهيئة هى سيلفستر حقاً ؟ بدأ بيشو ، أمام هذا المنظر العجيب، يحس بأن رأسه كلها تتصبب عرقاً .. أهذا حقاً سيلفستر، الخادم البدين ، بمظهره كمسجل عقود فى الأرياف .

توقف فجأة أمام بيشو وقد اتسعت عيناه ، وأزال من وجهه التكشيرة التى توتره ، كما لو كانت قناعاً .. وفك أزرار سترته وصديره ، وتخلص من بطنه الكاوتشوكية وارتدى سترة ناولها له الجنرال ديروك .. ونظر إلى بيشو من جديد ، وقال فى لهجة قاسية :

- إن بيشو أبله كبير .

لم يغضب بيشو ، فقد بدأ من مظهره المحزن أنه يرفض بكل الاهانات ، وقال فى بساطة : بارنيت !

وأجابه الآخر : نعم ، بارنيت .

كان الجنرال ديروك يضحك من قلب خلى .. وقال له بارنيت :

- التمس معذرتك ياجنرال .. ولكننى ، عندما أنجح ، تتملكنى فرحة كبيرة بحيث لا أملك إلا أن أقوم بحركات بهلوانية أو راقصة تثير الضحك .

- إذن فقد نجحت يامسيو بارنيت !

أجاب بارنيت : أظن ذلك ، وبفضل صديقى العزيز بيشو .. ولكن لايجب أن نجعله ينتظر .. ولنبدأ من البداية .

وجلس .. وأشعل الجنرال سيجارة.. وأشعل بارنيت هو الآخر سيجارة وبدأ يقول :

- حسناً ياصديقى بيشو .. جاءتنى وأنا فى أسبانيا برقية من صديق مسترك يطلب منى مساعدة الجنرال ديروك .. وكنت أقوم برحلة غرامية ، ولعلك تتذكر ، مع امرأة ظريفة .. ولكن الحب بدأ يفتر بيننا .. وانتهزت هذه الفرصة لكى استرد حريتى ، وعدت بصحبة بوهيمية فاتنة ، التقيت بها فى غرناطة .. وراقت لى القضية لأنك أنت الذى كلفت بها .. واستنتجت على الفور أنه إذا كان هناك دليل على

براءة أو إدانة النائب ديروك فلابد من الحصول عليه من حارس الأمن الذى اعترض الطريق أثناء فراره .. وهنا ، أعترف لك يابيشو أنه ، رغم كل الوسائل والمحاولات لم أفلح فى معرفة اسم ذلك الرجل الشهم .. فى العمل ؟ كانت الأيام تمر ، وأصبحت المحنة قاسية بالنسبة للجنرال وابنه ، ولم يبق أمامى غير أمل واحد ، وهو أنت .

لم يتحرك بيشو.. أحس بالاحباط التام ، وبأنه أصبح ضحية أسوأ خداع ، فما من علاج ، ولا من أى عمل ممكن ، فقد وقع الشر .. وعاد بارنيت يقول :

ـ نعم ، أنت يا بيشو .. فقد كنا نعلم إنك أنت الذى كلفت بمراقبة واستجواب حارس الأمن .. ولكن كيف نجتذبك هنا ؟ كان الأمر سهلاً ، فقد اعترضت طريقك ذات يوم ، وجعلتك تتعقبنى حتى ميدان التروكاديرو ، حيث كانت تنتظرنى حسنائى البوهيمية.. وببضع كلمات متبادلة همساً ، وبضع نظرات إلى هذا البيت ووقعت فى الفخ .. ولم تعد تفكر إلا فى الإيقاع بى أو بالبوهيمية .. وجعلت من هذا البيت ميدان حرب ، بجوار الجنرال وخادمه سيلفستر، أى بجوارى ، وبذلك استطعت أن أراك كل يوم وأن أسمعك ، وأن أثير حماسك بواسطة الجنرال ديروك .

وتحول بارنيت إلى هذا الأخير وقال له :

ـ لك كل تهانئى ياسيدى الجنرال ، فإنك عاملت بيشو برقة وبراعة تغلباً على شكوكه ، وقادانى إلى الهدف وهو أن يضع تحت تصرفنا لبضع دقائق حارس الأمن.. أجل يابيشو .. كانت بضع دقائق كافية تماماً .. فماذا كان الغرض ؟ غرض البوليس والنيابة والجميع ؟ هو العثور على الصورة ، أليس كذلك ؟ كنت أعرف براعتك ، ولم أشك فى أن أبحاثك قد امتدت إلى حدود الإتقان .. إذن فلا جدوى من البحث

بنفس الطرق والوسائل التى سلكتموها ألف مرة .. كان يجب أن نتصور شيئاً آخر .. شيئاً أخر غير عادى وغير مألوف ، بحيث إذا أتينا بالحارس هنا نستله منه خفية ومن غير أن يشعر وبسرعة ، فالثياب والجيوب والبطانات وكعوب الأحذية المجوفة ، كل ذلك خدع مستهلكة .. وكان لابد مما تخيلته أنا يا بيشو : المحال والعادى .. المخبأ العجيب والطبيعى فى نفس الوقت والمتوفر بسبب مهنة ذلك الرجل أكثر من أى شخص آخر .. ما الذى يتميز به حارس الأمن فى مهنته إذن ؟ دونا عن غيره .. ما الذى يميزه عن الشرطى العادى ؟ أو عن مفتش بوليس ؟ فكر وحاول أن تعرف يابيشو .. أننى أمهلك ثلاث ثوان لا أكثر حيث أن الأمر واضح وضوح الشمس .. واحد .. اثنان .. ثلاثة ... هل وجدت ؟ وهل فهمت ؟

ولكن بيشو لم يفهم ولم يجد .. ورغم غرابة الموقف ، راح يحاول أن يجمع أفكاره ، وأن يستعرض أمام عينيه حارس أمن يقوم بوظيفته .. وقال بارنيت :

ـ هلم يا صديقى المسكين .. أنت لست فى أحسن حالاتك اليوم ، وأنت الثاقب الفكر دائماً .. هل يجب أن أضع النقط فوق الحروف ؟

ووضع بارنيت شيئاً فوق أنفه هو بالذات .. وكان قد اندفع خارج الغرفة ثم عاد وهو يضع فوق آنفه فى حالة توازن عصا الشرطى، تلك العصا الصغيرة البيضاء التى يستخدمها رجال الشرطة فى باريس ، وفى لندن فى حفظ النظام ويسيطرون بها على الشغب ويشيرون بها إلى العربات ويهيمنون بها على اللصوص والأشرار، صفوة القول تلك التى يبدون بها كأنهم ملوك الشوارع وسادة الساعة .. وراح بارنيت يقذف بها فى الفضاء ثم يستردها فى يده بحركات بهلوانية ويمررها من بين ساقه ثم خلف ظهره وحول عنقه.. وأخيراً أمسكها بين سبابته

وإبهامه وقال :

ـ أيتها العصا الصغيرة البيضاء .. يا رمز السلطة .. أنت التى أخذتها من حمالة الشرطى ريمبورج ووضعت أخرى شبيهة لك مكانها ، لم أخطئ طبعاً عندما اشتبهت فى أنك المخبأ المثالى الذى نبحث عنه .

وأمسك العصا الصغيرة بيده اليسرى وراح يدير مقبضها بيده اليمنى ، فدار فى يده ولم يثبت أن انفصل عن العصا .. وقال :

ـ هذا ما ظننت تماماً .. يا له من عمل رائع وصعب يكاد يكون مستحيلاً .. معجزة من الذكاء والدقة .. منذ الذى كان يخطر له أن الشرطى ريمبورج معه مثل هذه المعجزة ، وبأية أعجوبة تمكنوا من حفر قناة بداخلها وصنع مقبض لولبى بحيث لايستطيع أحد أن يميزها عن غيرها من العصى !

وأخرج بارنيت من تجويف العصا حلقة مستطيلة من النحاس ، بينما كان الجنرال ديروك وبيشو يحدقان فيه فى ذهول .. وانقسمت الحلقة إلى جزئين ظهر فى الجزء الأول منها أنبوبة من النحاس هى الأخرى كانت مغروزة فى الحلقة حتى آخرها .

توترت الوجوه ، وانحبست الأنفاس .. وراح بارنيت يعمل رغماً عنه ، فى شئ من الخطورة ، فأخرج الأنبوبة وراح يضربها فوق المنضدة فسقطت منها لفافة من الورق .

وصاح بيشو وقد امتقع وجهه : الصورة .. أننى أعرفها .

ـ أنت تعرفها ، أليس كذلك ؟ خمسة عشر سنتيمتراً تقريباً ، وقد انتزعت من كرتونتها ، وتجعدت تقريباً .. هل تريد أن تبسطها ياسيدى الجنرال ؟

أخذ الجنرال ديروك المستند بيد فقدت هدوءها الطبيعى .. كان بها أربع رسائل وبرقية مشبوكة بدبوس .. وتأمل الصورة لحظة ، ثم عرضها على زميليه وهو يقول بصوت متهدج قليلا من فرط الانفعال والسرور ، ثم القلق الفجائى .

- صورة امرأة .. امرأة شابة ، تضع طفلاً فوق ركبتها .. ملامحها نفس ملامح مدام فيرالدى كما ظهرت فى الجرائد .. أنها هى دون شك ، منذ تسع أو عشر سنوات .. ثم أن التاريخ مدون عليها .. إن الصورة ترجع إلى إحدى عشرة سنة والتوقيع الذى عليها باسم كريستان ، وهو نفس اسم مدام فيرالدى .

وغمغم بعد لحظة : ماذا يجب أن نفهم .. هل كان ابنى يعرفها إذن فى ذلك الوقت ، قبل أن تتزوج ؟

قال بارنيت : اقرأ الرسائل ياسيدى الجنرال .

وناوله أول ورقة .. وكانت مستهلكة عند الطيات ومكتوبة بخط نسائى .

وقرأ الجنرال ديروك ، وما كاد يقرأ سطورها الأولى حتى كتم صيحة كما لو أنه عرف شيئاً خطيراً ومؤلماً .. واستمر فى قراءته فى لهفة ، وقرأ الرسائل الأخرى ثم البرقية التى قدمها إليه بارنيت .. وسكت الجنرال لحظة وقد بدأ عليه الاضطراب والقلق.. وقال بارنيت :

- هل يمكن أن تفسر لنا الأمر ياسيدى الجنرال ؟

لم يرد الجنرال على الفور .. واغرورقت عيناه بالدموع ثم قال أخيراً :

- أنا المذنب الحقيقى .. فمنذ اثنتى عشرة سنة أحب ابن فتاة من عامة الشعب.. عاملة بسيطة .. أنجب منها طفلا.. وأراد أن يتزوجها

رغماً عنى ، ولكن الفتاة ضحت بنفسها .. وهذه هى الرسالة الأولى

"الوداع ياجان .. أبوك لايوافق على زواجنا ، فلايجب أن تعصيه فإن ذلك سيجر الشقاء على وليدنا العزيز.. إننى أرسل إليك صورتنا ، أنا وهو معاً ، فاحتفظ بها معك ولاتنسانا سريعاً" .

ولكن كانت هى التى نسيت ، فقد تزوجت فيرالدى .. وعهد جان بالطفل إلى مدرس متقدم فى السن فى ضواحى شارتر ، حيث كانت أمه تمضى لرؤيته سراً .

انحنى بارنيت وبيشو ، فقد كان الجنرال يتكلم فى صوت خافت ، كما لو أنه يحدث نفسه وهو لايرفع عينيه عن الرسائل التى توجز الحاضر الأليم .. وقال :

ـ أما الرسالة الأخيرة فترجع إلى خمسة شهور .. بضعة سطور تعترف فيها كريستيان بأسفها وندمها وتقول أنها تحب الطفل كل الحب ثم لاشئ .. وأخيراً هذه البرقية ، وقد أرسلها المدرس إلى جان ويقول فيها":الولد مريض جداً فقال" وعلى هذه البرقية كتب ابنى هذه العبارة المهولة التى تشير إلى النهاية الفظيعة : ابننا مات وكريستان انتحرت .

لزم الجنرال الصمت من جديد.. على أن الحقائق كانت تفسر نفسها ، فما أن تلقى جان البرقية حتى بحث عن كريستان وجرها وهى متخاذلة نحو السيارة .. وأثناء العودة من شارتر ، بعد أن أقبلت ابنها الميت استولت عليها أزمة من اليأس وانتحرت .

وقال جيم بارنيت مستفهماً : علام عولت ياسيدى الجنرال ؟

ـ سأعلن الحقيقة طبعاً ، فإذا كان جان لم يتكلم فذلك لا لكى يتهم الميتة بالتأكيد وإنما لكى لايتهمنى أنا ، فأنا المسئول عن هذه القصة المحزنة .. ومع ذلك ، فرغم ثقته بأن مدرس شارتر لن يخونه ، وبأن

حارس الأمن ريمبورج سيلزم الصمت هو الآخر فإنه أراد أن لا تضيع الحقيقة وأن يدع القدر يتصرف وفق ما يشاء .. ومادمت قد أفلحت يامسيو بارنيت ..

- أننى أفلحت ياسيدى الجنرال بفضل صديقى بيشو ، فلا تنس ذلك .. فلو أنه لم يأتنى بالشرطى ريمبورج وبعصاته البيضاء لخسرت المعركة .

فاشكر بيشو ياسيدى الجنرال .

- إننى أشكر كما معا ، فقد أنقذتما ابنى ، ولن أتردد فى القيام بواجبى .

أقره بيشو وقد تأثر بالأحداث بحيث تغلب على كرامته وتخلى عن الحصول على المستندات التى يبحث عنها البوليس ، وتغلب ضميره الإنسانى على ضميره المهنى.. وإذ مضى الجنرال إلى غرفته اقترب من بارنيت ، وألقى بيده على كتفه وهو يقول :

- إننى ألقى القبض عليك ياجيم بارنيت .

قال ذلك فى سذاجة من يعرف تماماً أن تهديده غير مجد ، وأنه إنما ينطق به مدفوعاً بإرضاء ضميره ولكى لايبخل بواجبه ، وهو إلقاء القبض على بارنيت .

وصاح هذا الأخير وهو يبسط له يده :

- أحسنت يا بيشو ، فها أنت قد ألقيت على القبض واعتقلتنى ، وتغلبت على بحيث لايمكن لأحد أن يلومك .. والآن ، وإذا سمحت ، فإننى سأهرب حتى لاتظلل صداقتك أية شائبة .

قال بيشو بتلك السذاجة التى يتميز بها وتجعله محبوباً من الجميع :

ـ إنك تفوقت علينا جميعاً يابارنيت ، وأن ما قمت به الآن لمعجزة حقاً .. كيف ضمنت هذا ؟ كيف خمنت وجود هذا المخبأ العجيب فى عصا حارس الأمن ، وذلك دون أى دليل ؟

ضحك بارنيت وقال : آه .. إن طعم المكسب يشحن الخيال .

قال بيشو فى قلق : أى مكسب ؟ ليس ما سيقدمه لك الجنرال ديروك على ما أظن .

ـ وما سأرفضه طبعاً ، فإن مكتب بارنيت يعمل بالمجان ، فلا تنس ذلك .

ـ إذن ؟

قال جيم بارنيت فى ضراوة : إذن .. وأنا أقرأ الرسالة الرابعة بركن عينى عرفت أن كريستان فاليرى قد صارحت زوجها منذ البداية بماضيها .. وبذلك ، فإنه بعلمه بعلاقة زوجته القديمة ووجود الطفل قد خدع العدالة بإخفائه هذه الحقيقة وذلك بفرض انتقامه من جان ديروك وإرساله إذا أمكن إلى المشنقة.. وهو تصرف شنيع كما تعرف .. فهل تعتقد أن الثرى فيرالدى لن يسره شراء مثل هذا الخطاب المشين.. إذا ذهب إليه رجل شهم يريد كتمان الأمر ويعرض عليه ذلك بكل رفق ألا تعتقد أن فيرالدى سيقدم له مبلغاً محترماً .. ومهما يكن فقد احتفظت بالرسالة فى جيبى .

تنهد بيشو ، ولكنه لم ينطق بكلمة احتجاج ، فالمهم أن البراءة قد ظهرت وأن الخير قد تغلب على الشر وأن الحق قد ظهر بصورة أو بأخرى .. ولايضيره تلك الاستقطاعات التى يقوم بها بارنيت فى آخر دقيقة على حساب المذنبين والخطاة .. وقال :

ـ الوداع يابارنيت .. ومن الخير أن لانلتقى بعد اليوم وإلا انتهيت بأن أفقد ضميرى المهنى إلى الأبد .. الوداع .

ـ الوداع إذن يابيشو .. إننى أفهم دوافعك وهى دوافع تشرفك .

؟؟؟

بعد بضعة أيام تلقى بيشو الرسالة التالية من بارنيت .

" أنهى إليك هذا النبأ السعيد ياصديقى العزيز ، فرغم أنك لم تعتقل هذا الخبيث بارنيت كما وعدت ، ورغم أنك لم تحصل على الصورة الفوتوغرافية كما صدر إليك الأمر بذلك فإننى استبسلت فى الدفاع عنك وفى إظهار الدور العظيم الذى قمت به فى هذه القضية بحيث أننى حصلت على ترقيتك إلى رتبة رئيس المفتشين ".

أتى بيشو بحركة تدل على الغضب .. كيف يدين بترقيته لبارنيت ؟

لم يكن هذا بالأمر المقبول .

ولكن ، من ناحية أخرى ، كيف يرفض إقرار المجتمع واعترافه بخدماته الجليلة وهو يعرف أنه يستحق تلك الترقية بكل جدارة .

وكان أن مزق الرسالة وقبل الترقية .





ـ ما رأيك الحقيقى فى المفتش جانيمار ؟

ـ أنه رجل ممتاز .

ـ ممتاز ؟ لماذا لاتترك فرصة إذن إلا وتجعل منه آداة لسخريتك ؟

ـ إن هى إلا عادة سيئة ، وأنا شديد الندم لذلك .. ولكن ماذا تريد .. أنها القاعدة ، فهو رجل قدير من رجال البوليس ، وهناك الكثير من رجال البوليس المكلفون بحفظ النظام والدفاع ، عنا ضد اللصوص ، ويتعرضون للقتل فى سبيلنا نحن الرجال الشرفاء ، ولانعاملهم مقابل ذلك إلا بالتهكم والإزدراء ، وهذا منتهى الغباء.

ـ مرحى يالوبين .. أنك تتكلم كبورجوازى صالح .

ـ وماذا تظننى إذن ؟ إذا كان لى آراء خاصة فيما يتعلق بملكية الغير فإننى أقسم لك أن ذلك يختلف تماماً إذا ما تعلق الأمر بملكيتى أنا .. والحق أننى أنصح بألايفكر أحد فى المساس بما يخصنى لأننى أغدو عنيفاً عندئذ .. أوه .. أوه .. إن ممتلكاتى ومحفظتى وساعتى .. ممنوع لمسها .. إن لى روح المحافظ ياصديقى العزيز ، وغريزة رجل له دخل صغير عليه احترام كل المقاليد وكل السلطات ، ولهذا يوحى إلى جانيمار بالكثير من التقدير والعرفان .

ـ ولكنه لايوحى إليك إلا بقليل من الإعجاب .

ـ بل بإعجاب كبير كذلك .. ففضلا عن شجاعته التى لاتقهر، وهى

ميزة رجال البوليس ، فإن جانيمار له مزايا كبيرة جداً .. فهو لايفتقر إلى الحزم ولا إلى الذكاء والحصانة ، وقد رأيته وهو يعمل .. وأنه رجل .. هل تعرف القضية التى اشتهرت باسم قضية أديث العنقاء ؟!

ـ كما يعرفها الجميع .

ـ إذن فأنت تعرف عنها القليل .. حسناً .. قد تكون هى القضية التى اتقنت تدبيرها بكل عناية وبكل حرص وجمعت فيها كل الغموض والأسرار، والتى نفذتها بكل مهارة وهدوء ، كأنها مباراة دقيقة فى الشطرنج .. دقة وبراعة فائقين ، ومع ذلك فإن جانيمار انتهى بأن فك طلاسمها .. وإذا كان أولو الأمر فى إدارة البوليس يعرفون الحقيقة الآن فالفضل فى ذلك له وحده ، وأؤكد لك أنها حقيقة ما كانت تخطر على بال أحد .

ـ وهل أستطيع معرفتها ؟

بالتأكيد .. فى ذات يوم .. عندما أجد متسعاً من الوقت .. ولكن البرونللى ترقص الليلة فى الأوبرا ، وإذا هى لم ترنى فى مقعدى .

ولقاءاتى بلوبين نادرة ، ثم أنه يدلى إلى باعترافاته بصعوبة ، وعندما يروق لى ذلك .. ولم أعرف مراحل هذه القصة إلا بكلمات متقطعة من وقت لآخر ، وفلتات من اعترافاته جمعتها فيما بعد ، وأسوقها إليكم الآن بكل تفاصيلها .

؟ ؟ ؟

والبداية معروفة .. وسأكتفى بعرض الحقائق .

منذ ثلاث سنوات، عندما بلغ القطار القادم من برست محطة رين وُجد باب إحدى المركبات محطماً .. وكان قد استأجرها ثرى برازيلى

وكان بالمركبة التى تحطم بابها مجموعة من السجاجيد .. واغتصب صندوق يحتوى على سجادة منها ، وقد اختفت من الصندوق .

وقدم الكولونل سبارميينتو شكوى ضد شركة السكك الحديدية ، وطالب بتعويض كبير بسبب انخفاض قيمة المجموعة كلها نتيجة لتلك السرقة .

وقام البوليس بالتحقيق .. ووعدت الشركة بمنح مكافأة كبيرة .. وبعد أسبوعين وصل إلى البوليس خطاب غير مختوم تقريباً عرفوا منه أن السرقة وقعت تحت إشراف أرسين لوبين ، وأن السجادة سترسل فى طرد إلى أمريكا الشمالية .. وفى نفس الليلة عثروا على السجادة فى حقيبة مودعة بمكتب أمانات محطة سالازار .

وهكذا فشلت السرقة ، وأحس لوبين بالاستياء بحيث أودع كل غضبه فى رسالة أرسلها للكولونل سبارميينتو يقول له فيها : "أننى كنت من الرقة وحسن الذوق بحيث لم أشأ أن آخذ غير سجادة واحدة .. ولكننى سآخذ الاثنتى عشرة كلها فى المرة القادمة .. ولقد أعذر من أنذر .. ولك تحياتى" .

كان الكولونل سبارميينتو يقيم منذ بضعة شهور فى بيت يقع فى آخر حديقة على ناصية شارعى فيزاندرى ودوفرينوى .. وكان رجلاً قوياً عريض الكتفين ، أسود الشعر، أسمر البشرة ، بسيط فى أناقته .. تزوج امرأة انجليزية فائقة الجمال، ولكنها رقيقة الصحة أثرت فيها سرقة السجادة تأثيراً كبيراً.. ومنذ أول يوم توسلت إلى زوجها أن يبيعها كلها بأى ثمن.. ولكن الكولونل كان قوى الإرادة، صلب الرأى ، فلم يقبل أن يستسلم لنزوة امرأة ، كما يقول ، ولم يبع شيئاً ، وإنما بالغ فى أخذ الاحتياطات، وأحاط نفسه بوسائل يتعذر معها سرقة

أى شئ .

سد جميع نوافذ الطابقين الأرضى والأول التى تطل على شارع دوفرينوى وذلك حتى لايتعين عليه مراقبة شئ آخر غير واجهة البيت التى تطل على الحديقة .. ثم طلب من شركة خاصة بتأمين البيوت أن تقوم بحماية بيته ، فزودت جميع نوافذ القاعة التى علقت فيها السجاجيد بأجهزة انذار خاصة غير ظاهرة ، كان هو وحده يعرف مكانها ، وتضيئ أنوار البيت كله بمجرد لمسها ، وتصدر رنيناً ودوياً لاينقطعان .

ثم أن شركات التأمين التى لجأ إليها لم تقبل التأمين على سجاجيده إلا إذا أقام لديه فى الطابق الأرضى ثلاثة رجال من قبلها على أن يدفع أجورهم .. واختارت لذلك ثلاثة من مفتشى البوليس القدامى المحنكين والأمناء ، يحقدون على لوبين كل الحقد .

أما الخدم فكان الكولونل يعرفهم منذ وقت طويل وقد ضمنهم .

وبعد اتخاذ كل هذه الإجراءات ، وبعد أن زود البيت بأجهزة دفاع كما لو كان حصناً، أقام الكولونل حفلة استقبال كبيرة لعرض مقتنياته دعا إليها أعضاء الناديين اللذين ينتمى إليهما وعدداً من النساء والصحفيين وهواة جمع التحف والنقاد الفنيين .

وما أن اجتاز كل من المدعوين باب الحديقة حتى خيل إليه أنه يدخل سجناً ، فقد وقف المفتشون الثلاثة عند أسفل السلم وراحوا يطلبون بطاقة الدعوة من كل منهم وينظرون إليه بعين فاحصة مستريبة ، حتى أنه كان يخيل إليه أنهم قد يطلبون تفتيشه أو أخذ بصمات أصابعه .

ووقف الكولونل فى الطابق الأول يستقبل مدعويه ويعتذر إليهم وهو يضحك وقد أسعده أن يشرح لهم الإجراءات التى تصورها

لتأمين سجاجيده .

ووقفت زوجته بجواره ، رقيقة ، بشبابها وظرفها، شقراء، شاحبة ، غضة ، على ملامحها سمة من الحزن والدعة ، وهى سمة استسلام الأشخاص الذين يهددهم القدر .

وعندما اجتمع كل المدعوين ، أغلقوا باب الحديقة وأبواب الردهة ثم انتقلوا إلى القاعة الرئيسية عبر أبواب مزدوجة مصفحة وزودت نوافذها العالية بقضبان من الحديد .. فى تلك القاعة كانت السجاجيد الاثنتى عشرة .

تحفاً فنية رائعة لا مثيل لها مستوحاة من نسيج بايو الذى ينسب إلى الملكة ما تيلده، تمثل قصة غزو انجلترا ، صنعت فى القرن السادس عشر بناء على طلب قائد من قواد الجيش كان يرافق غليوم الفاتح ، ونسجها جان جوسيه ، نساج آراسى الشهير ، وتم العثور عليها بعد خمسمائة سنة فى بيت قديم ببريتانى .. وإذ عرف الكولونل بأمرها اشتراها كلها بخمسين ألف فرنك فى حين أنها تساوى هذا المبلغ عشرين مرة .

ولكن أجمل تلك السجاجيد الاثنتى عشرة هى بالذات السجادة التى سبق أن سرقها أرسين لوبين ، والتى استطاعوا استعادتها .. كانت تصور أديث العنقاء وهى تبحث بين موتى هاستنجز عن جثة حبيبها هارولد ، آخر ملوك الساكسون .

وقف المدعوون أمام هذه اللوحة يبدون إعجابهم الفائق بجمالها وبألوانها الباهتة وبتجميع الأشخاص والحزن البالغ الذى يوحيه المنظر.. وصورة أديث العنقاء ، الملكة المسكينة المثنية كزهرة الزنبق الثقيلة .. كان ثوبها الأبيض ينم عن جسدها الضعيف ، ويداها الطويلتان الرقيقتان تمتدان فى حركة هلع وتوسل .. ولم يكن هناك ما

هو أكثر حزناً من جانب وجهها الذى تعلوه أكثر الابتسامات حزناً وأشدها يأساً .

وقال أحد النقاد ، وكانوا يستمعون إليه فى احترام : ابتسامة مؤثرة .. ابتسامة حافلة بالفتنة مع ذلك ، تجعلنى أفكر يا كولونل فى مدام سبارميينتو .

وبدت الملاحظة حقيقية .. وعاد يقول فى إصرار : وهناك نقاط تشابه أخرى استرعت انتباهى على الفور .. وهى انحناءة العنق ورقة اليدين .. وكذلك شئ آخر فى المظهر .. وفى الهيئة المألوفة .

اعترف الكولونل قائلاً : هذا صحيح تماماً إلى حد أن هذا التشابه هو الذى حملنى على شراء السجادة .. ثم أن هناك سبباً آخر، وهو أن من الصدف الغريبة حقاً أن زوجتى تدعى أديث بالذات .. وقد سميتها منذ أن اشتريت السجادة بأديث العنقاء .

وأردف الكولونل وهو يضحك : وأتمنى أن يتوقف التشابه عند هذا الحد وأن لا تضطر عزيزتى أديت إلى أن تبحث عن جثة حبيبها كما تفعل صاحبة اللوحة ، فأنا حى أرزق وليست بى أية رغبة فى أن أموت ، ولن يقع ذلك إلا إذا حدث واختفت اللوحات فإننى لا أضمن ما قد يدور فى ذهنى عندئذ .

وضحك وهو ينطق بكلماته الأخيرة .. ولكن ضحكته لم تجد لها صدى .. وفى الأيام التى تلت ، وفى كل الروايات التى قيلت بصدد تلك الحفلة تخللها نفس الضيق والصمت ، فلم يعرف المدعوون ماذا يقولون .

وأراد أحدهم أن يمزح فقال : أيكون اسمك هارولد ياكولونل ؟؟

أجاب فى مرح ظاهر : كلا .. ليس اسمى هارولد ، ثم إننى لا أشبه أبداً الملك السكسونى .

وقد اتفق الجميع بعد ذلك على التأكيد بأنه ، فى اللحظة التى فرغ فيها الكولونل من عبارته تلك صدر من إحدى النوافذ رنين حاد .. ولكن اختلف الجميع فمن قائل أن الصوت صدر من النافذة التى إلى اليمين ، ومن قائل أنه صدر من النافذة التى إلى اليسار .. وقد أعقب ذلك الرنين صرخة فزع أطلقتها مدام سبارميينتو ، وهى تتشبث بذراع زوجها ، فقال :

ـ ما هذا .. ما معنى هذا ؟

تجمد المدعوون فى أماكنهم ، وراحوا ينظرون إلى النافذتين .

وعاد الكولونل يقول :

ـ ما معنى هذا ؟ اننى لا أفهم شيئاً .. لا أحد فيهم يعرف مكان هذا الجرس .

وفى نفس اللحظة ، وقد أجمع الجميع على ذلك أيضاً ، فى نفس اللحظة ساد الظلام التام وعلى الفور ، ومن أعلا البيت إلى أسفله ، وفى كل الغرف ، وفى كل القاعات ومن كل النوافذ ، انطلق الدوى من كل الأجراس .

وساد الهرج والمرج بضع ثوان .. وعم الذعر الجنونى .. صرخت النساء ، وراح الرجال يدقون على الأبواب الموصدة بأيديهم فى جنون ، وأخذوا يتدافعون بالمناكب، ووقعوا فوق بعضهم البعض .. وكان الذعر أشبه بذلك الذى يحدث عند اندلاع حريق لا يبقى ولا يذر أو انفجار قنبلة .. وصاح الكولونل وغطى بصوته على كل شئ وهو يقول :

ـ اصمتوا .. لاتتحركوا .. إننى كفيل بكل شئ .. إن مفتاح النور هنا .. فى الركن ها هو .

وشق طريقه فعلاً بين المدعوين ، وبلغ ركن القاعة ، وفجأة سطع النور الكهربائى من جديد ، وتوقف دوى الأجراس على الفور .

وعندئذ وفى النور الساطع بدأ منظر غريب ، فقد أغمى على سيدتين .. وكانت مدام سبارميينتو متشبثة بذراع زوجها وتبدو كالميتة .. أما الرجال فقد بدلهم الروع وتشوشت ثيابهم لفرط ما عم من فوضى وارتباك .

وصاح أحدهم : أن السجادات موجودة .

وكانت الدهشة بالغة ، كما لو أن اختفاء تلك السجادات كان يجب أن يكون النتيجة الوحيدة المعقولة لتفسير ما حدث .

ولكن لم يتحرك شئ ، وحتى بعض اللوحات النفيسة كانت لا تزال مكانها .. ورغم أن الضجة ملأت البيت كله ورغم أن دوى الأجراس كان فى كل مكان فإن المفتشين الثلاثة لم يروا أحداً يدخل أو يحاول الدخول .

وقال الكولونل : وعلى كل حال فإن نوافذ هذه القاعة وحدها هى المزودة بجهازات الإنذار ، وأنا وحدى أعرف طريقة تشغيلها .

وضحكوا كثيراً من تلك الغارة الكاذبة ، ولكنهم ضحكوا دون اقتناع ، وفى شئ من الخجل ، إذا أحس كل واحد بسخافة تصرفه .. وساد بينهم جو من القلق والانزعاج .

ومع ذلك فقد مكث صحفيان ، انضم إليهما الكولونل بعد أن عنى باديث وعهد بها إلى بعض الخادمات .. وقاموا ثلاثتهم ، مع المفتشين ببحث دقيق لم يسفر عن شئ.. ثم جاء الكولونل بزجاجة شمبانيا .. ونتيجة لذلك لم يغادر الصحفيان البيت إلا فى ساعة متأخرة ، فى نحو الثالثة إلا الربع ، وأوى الكولونل إلى غرفته ، وعاد المفتشون إلى غرفتهم التى خصصت لهم فى الطابق الأرض .

وتناوب الثلاثة الحراسة ، كل بدوره ، وهى حراسة تقوم على بقائه ساهراً ثم القيام بجولة فى الحديقة ويصعد إلى القاعة .

قاموا بهذا العمل بدقة تامة ، فيما عدا بين الساعة الخامسة حتى السابعة صباحاً ، فقد غلبهم النوم ولم يقوموا بجولاتهم .. ولكن النهار كان قد طلع فى الخارج ، ثم أن الأجراس ظلت صامتة ، فلماذا يظلون ساهرين ؟

ومع ذلك ، ففى الساعة السابعة والدقيقة العشرين ، عندما فتح أحدهم باب القاعة والنوافذ تحقق من اختفاء الاثنتى عشرة سجادة .

؟ ؟ ؟

بعد ذلك أنبت الجهات العليا ذلك الرجل وزميليه لأنهم لم يبلغوا الأمر على الفور ، ولأنهم بدأوا الأبحاث قبل أن يخبروا الكولونل أو إدارة البوليس .. ولكن ما كان لهذا التأخير ، وله عذره ، ليعرقل سير التحقيق .

ومهما يكن فلم يعلم الكولونل بالحادث إلا فى الساعة الثامنة والنصف فحسب.. وكان مرتدياً كل ثيابه ويستعد للخروج.. وبدأ كأن الخبر لم يؤثر فيه على الإطلاق، أو على الأقل ، أفلح فى التغلب على إنفعالاته .. ولكن لاريب أن الجهد كان كبيراً جداً لأنه تهالك فجأة فوق مقعد، واستسلم بضع لحظات لسورة حقيقية من اليأس.. وكان يأساً شديداً، إذا نظرنا إلى ذلك الرجل المعروف بالحزم والنشاط .

واسترد نفسه ، وتغلب على يأسه ، ومضى إلى القاعة ، ونظر إلى الجدران العارية ثم جلس أمام منضدة وسطر رسالة سريعة وضعها فى ظرف وختمه وقال :

ـ خذ هذا .. أننى على عجل من أمرى .. موعد فى غاية الأهمية .. هذه الرسالة لمدير البوليس .

وإذ حدجه المفتشون قال : هذا مجرد إحساس أنقله لمدير البوليس .. مجرد اشتباه خطر ببالى .. فليتحقق منه .. ومن ناحيتى ، سأبدأ ببحث سريع .

وانصرف وهو يجرى بحركات تذكر المفتشون فيما بعد أنها كانت تنم عن الارتباك والاضطراب .

وبعد بضع دقائق ، أقبل مدير البوليس ، فأعطوه الرسالة .. كانت تضم هذه الكلمات:

"فلتغفر لى زوجتى الحبيبة الألم الذى سأسببه لها .. حتى اللحظة الأخيرة ، سيكون اسمها على لسانى .

وهكذا ، بعد لحظة جنون ، وبعد ليلة عانى فيها من الضغط العصبى تسبب له فى نوع من الحمى ، أسرع الكولونل لكى ينتحر .. فهل تواتيه الشجاعة على الإقدام على مثل هذا العمل أم يتردد فى آخر لحظة .

أخبروا مدام سبارمييننتو .. وانتظرت نتيجة أبحاثهم للعثور على أثر الكولونل وهى تلهث من الفزع .

وفى آخر الأصيل جاءت مكالمة من مدنية فيل دافرى ، فعند خروج الموظفين من النفق ، بعد مرور القطار، عثروا على جثة ممزقة تمزيقاً بشعاً ، ولم يعد للوجه أية صورة بشرية .. ولم يكن بجيوبها أية أوراق .. ولكن الأوصاف تطابقت مع أوصاف الكولونل .

وفى الساعة السابعة مساء هبطت مدام سبارمييننتو فى فيل دافرى ، واقتيدت إلى إحدى غرف المحطة .. وعندما رفعوا الغطاء الذى يغطى الجثة تعرفت أديث العنقاء على جثة زوجها .

وفى هذه المناسبة لم تكن الصحافة فى صف لوبين كما كانت

العادة دائماً .

وكتب أحد الكتاب الساخرين ملخصاً رأى الجمهور فقال :

ـ فليأخذ حذره ، فلو أن مثل هذه المغامرة تحدث مرة أخرى فسيفقد ما أوليناه من عطف حتى الآن .. ولوبين ليس مقبولاً إلا إذا ما وقعت نذالاته على كبار رجال المال والشركات المالية والمساهمة وما لم يقتل على الخصوص.. أن يمارس السرقة فليكن، أما أن يرتكب جريمة قتل فلا ، وهو إذا لم يكن قد قتل فهو مسئول على الأقل عن موت الكولونيل .. أنه تسبب فى إراقة الدماء .

وازداد غضب الجمهور وحقده بسبب رثائه لأديث، المخلوقة الوديعة المعتلة الصحة .. وتكلم مدعوو الأمس ، وعرف الجميع تفاصيل ما حدث عندئذ .. وأحاطت بالإنجليزية هالة أسطورية استعيرت من الفاجعة المأساوية التى وقعت للملكة أديث العنقاء .

ومع ذلك فلم يستطع أحد إنكار إعجابه بالطريقة البارعة التى نفذت بها السرقة .. وقد شرح البوليس على الفور كيفية تنفيذها .. فقد تحقق المفتشون الثلاثة منذ البداية (وأكدوا ذلك فيما بعد) إن إحدى نوافذ القاعة الثلاثة كانت مفتوحة على مصراعيها، فكيف يكون هناك شك فى إن لوبين وأعوانه لم يدخلوا من هذه النافذة .

كانت النظرية معقولة جداً.. ولكن كيف استطاعوا ، *أولاً* : اجتياز باب الحديقة ، *وثانياً* : عبور الحديقة ووضع سلم فوق الأرض دون ترك أية أثار .. *ثالثاً* : فتح مصراعى النافذة دون أن تنطلق أجراس الإنذار .. ودون أن تضاء أنوار القصر .

أما الجمهور فقد أتهم المفتشين الثلاثة .. وقد استجوبهم قاضى التحقيق كثيراً، وتحرى عن حياتهم الخاصة ، وتقصى ماضيهم ، وأعلن بما لايقبل الشك بأنهم فوق الشبهات .

أما السجاجيد فلم يعد هناك ما يدل على أنهم سيعثرون عليها .

فى ذلك الوقت عاد المفتش جانيمار من الهند بعد فراغه من التحقيق فى إحدى القضايا التى استدعت انتقاله إلى هناك .. ولما علم أن لوبين هو الذى سرق السجادات طلب من رؤسائه أجازة لمدة خمسة عشر يوماً ، وتقدم إلى مدام سبارمييتتو ووعدها بأن ينتقم لزوجها .

ولكن أديث كانت قد بلغت تلك المرحلة حيث لاتخفف فكرة الانتقام الحزن واللوعة اللذين يعصفان بها ، فطردت فى مساء يوم الدفن بالذات المفتشين الثلاثة واستبدلتهم بخادم واحد وامرأة متقدمة فى السن لكى تقوم بشئون البيت ، وهما خادمان كان يعيدان الماضى إلى ذاكرتها بكل قسوة ، ولهذا انفردت فى غرفتها، لاتبالى بأى شئ ، وتركت جانيمار يتصرف كما يحلو له .

وجعل المفتش إقامته فى الطابق الأرضى ، وطفق يقوم ، على الفور، بأبحاث دقيقة .. وبدأ التحقيق من البداية .. واستعلم فى الحى ودرس موضع البيت وأطلق أجهزة الإنذار عشرين ، بل ثلاثين مرة .

وبعد خمسة عشر يوماً طلب إطالة مدة أجازته .. وأقبل رئيس البوليس ، وكان يومئذ مسيو ديدوا ، لزيارته .. وفاجأه واقفاً فى أعلا السلم بالقاعة .

فى ذلك اليوم أعترف المفتش العام بعدم جدوى أبحاثه .

ولكن فى غداة اليوم التالى، مر مسيو ديدوا من هناك ورأى جانيمار مشغول البال وقد بسط بعض الجرائد أمامه.. وإذ ضيق عليه رئيس البوليس بالأسئلة قال له :

ـ لا أدرى ياسيدى الرئيس .. لا أدرى أبداً .. ولكن هناك فكرة تؤرقنى .. غير أنها فكرة جنونية للغاية .. ثم إنها لاتفسر شئ ، بل

على العكس تزيد الأمور تعقيداً .

- وإذن ؟

إذن أتوسل إليك أيّها الرئيس أن تتجمل بالصبر قليلاً وتدعنى أعمل .. ولكن إذا اتصلت بك فجأة فيجب أن تستقل أول سيارة وأن لاتضيع دقيقة واحدة .. ذلك أنى قد أكون اهتديت إلى السر .

ومرت ثمان وأربعون ساعة أخرى .. وتلقى مسيو ديدوا رسالة صغيرة :

" ج أننى مسافر إلى مدينة ليل .

جانيمار "

وقال رئيس البوليس :

- ما الذى دعاك إلى المضى هناك بحق الشيطان ؟

ومضى اليوم بدون أنباء ، ثم يوم آخر .

ولكن مسيو ديدوا كان يثق بالمفتش ، وكان يعرفه جيداً ، ويعرف أنه ليس من هؤلاء الذين يتحمسون دون سبب ظاهر .. وإذا كان قد سافر إلى ليل فلابد أن هناك أسباباً وجيهة دعته إلى السفر .

والواقع أنه فى مساء اليوم الثانى جاءته مكالمة :

- أهذا أنت أيها الرئيس ؟

- أهذا أنت يا جانيمار ؟

كان كل منهما شديد الحرص .. وتأكد كل منهما من الآخر .. وإذا اطمأن جانيمار أسرع يقول :

- عشرة رجال فورا أيها الرئيس ، وأرجوك أن تكون أنت نفسك معهم .

ـ أين أنت ؟

ـ فى البيت .. بالطابق الأرضى .. ولكننى انتظرك خلف باب الحديقة .

ـ أنا قادم ، فى السيارة طبعاً .

ـ نعم أيها الرئيس .. وأوقف السيارة على بعد مائة قدم .. وسأسرع أنا إليك بمجرد أن أسمع صفيرك .

وتمت الأمور طبقاً لتعليمات جانيمار .. وبعد منتصف الليل بقليل ، وإذ رأى أنوار الطوابق العليا مطفأة تسلل إلى الشارع وأسرع للقاء مسيو ديدوا .. ودار بينهما حديث قصير .. وأطاع رجال الشرطة أوامر جانيمار ، ثم مضى هو والرئيس وأجتازا الحديقة فى سكون وانفردا وحدهما فى حرص شديد .. وقال ديدوا :

ـ حسناً .. ما معنى كل هذا ؟ كأننا نتآمر حتماً .

ولكن جانيمار لم يضحك .. لم يره مسيو ديدوا منفعلاً هكذا أبداً ، ولم يسمعه يتكلم بمثل هذا الاهتياج .

ـ هل من جديد يا جانيمار ؟

ـ نعم ، أيها الرئيس ، ولكننى لأكاد أصدق هذه المرة .. ومع ذلك فأنا لم أخطئ ، فقد عرفت كل الحقيقة .. ورغم أنها تبدو غير معقولة إلا أنها حقيقية .. حقيقية تماماً .. ولايمكن إلا أن تكون كذلك .

وجفف قطرات العرق الذى يتصبب من جبينه .. وإذ سأله مسيو ديدوا ، جرع قدحاً من الماء ثم قال :

ـ إن لوبين خدعنى كثيراً .

قال مسيو ديدوا : هل لك أن تمضى إلى الغاية رأساً .. ما الخبر فى كلمتين اثنتين ؟

أجاب جانيمار معترضاً :

ـ كلا ، أيها الرئيس .. يجب أن تعرف المراحل المختلفة التى مررت بها .. وأرجو المعذرة ، ولكننى أعتقد أن هذا ضرورى .

وعاد يقول : كنت أقول أن لوبين خدعنى كثيراً، واذاقنى مر العذاب .. ولكن فى ذلك النضال الذى غلبنى فيه حتى اليوم ، عرفت على الأقل طريقته فى العمل ، وفيما يتعلق بقضيته السجاجيد فقد ألقيت على نفسى سؤالين على الفور .

أولاً: أن لوبين لايقدم على شئ أبداً دون أن يتأكد من نتيجته .. وكان يجب أن يعلم أن انتحار الكولونل سبارميينتو تكون نتيجة محتملة لإختفاء السجاجيد ، ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن لوبين يكره الدم فإنه سرق السجاجيد مع ذلك .

قال مسيو ديدوا : أغرته قيمتها التى تربو على السبعمائة أو الثمانمائة ألف فرنك .

ـ كلا أيها الرئيس .. أعود فأقول لك أنه مهما تكن الفرصة ، فلا شئ فى العالم ، ولا حتى من أجل ملايين وملايين ، فلايقتل لوبين ولا يريد حتى أن يتسبب فى الموت.. هذه أول نقطة .

وثانياً: لماذا تلك الضجة مساء اليوم السابق ، أثناء الحفلة .. لإلقاء الذعر فى النفوس فحسب ، ولكى يخلق حول المسألة ، وفى بضع دقائق جواً من القلق والرعب .. وأخيراً لكى يحرك الشكوك عن حقيقة قد يشتبه فيها أحد بدون شك ، ألاتفهم ؟

ـ كلا بالطبع .

قال جانيمار: الواقع أن الأمر غير واضح ، وأنا بالذات ، وأنا أفكر فى هذه النقاط لم أكن أفهم شيئاً .. ومع ذلك فقد كان لدى إحساس

بأننى أسير فى الطريق الصحيح.. نعم .. لم يكن هناك شك فى أن لوبين يريد أن يوجه الشكوك إليه حتى يبقى الشخص الذى يدير العملية غير معروف .

قال مسيو ديدوا : هل تعنى شريكاً ؟ شريكا اختلط بالمدعوين ، وأطلق أجهزة الإنذار ، واستطاع أن يختبئ فى القصر بعد انصراف الجميع ؟

ـ هو ذلك .. هو ذلك .. من المؤكد أن السجاجيد لم تسرق إلا بواسطة شخص يبقى فى القصر خلسة ، ولكن من المؤكد أيضاً أننا إذا فحصنا قائمة المدعوين فربما .

ـ حسناً ؟

ـ ولكن هناك شئ آخر مؤكد هو أيضاً ، فإن المفتشين الثلاثة كانت معهم قائمة بأسماء المدعوين ، وقد تحققوا أن الثلاثة وستين مدعوا دخلوا القصر وإن ثلاثة وستين قد غادروه وإذ ..

ـ أحد الخدم ؟

ـ كلا .

ـ المفتشون ؟

ـ كلا .

قال الرئيس وقد نفد صبره : ومع ذلك ، إذا كانت السرقة قد تمت من الداخل .

قال المفتش فى انفعال متزايد : هذه نقطة أكيده .. ولايمكن التردد فيها .. فكل أبحاثى قادتنى إلى هذه الوجهة .. وشيئاً فشيئاً انتهيت إلى تبنى هذه الحقيقة المذهلة .

"فمن الناحية النظرية ، ومن الناحية المسلم بها لايمكن أن تكون

السرقة قد نفذت إلا من شريك مقيم فى البيت . ولكن ليس هناك شريك .

قال مسيو ديدوا : ما هذا الهراء ؟

ـ الأمر كما تقول حقاً ، ولكن فى نفس اللحظة التى نطقت فيها بذلك الهراء تجلت لى الحقيقة .

ـ ماذا تقول ؟

ـ أوه .. هى حقيقة مبهمة وغير مكتملة ، ولكنها كانت من الكفاية بحيث جعلتنى أسير فى تحقيقى إلى النهاية .. هل تفهمنى أيها الرئيس .

لزم مسيو ديدوا الصمت . ولاريب أن نفس الحقيقة تجلت له عندئذ هو الآخر لأنه تمتم يقول :

ـ إذا لم يكن السارق من المدعوين ولا من الخدم ولا من المفتشين ، فلا يبقى إلا ..

ـ نعم أيها الرئيس .. لايبقى إلا شخص واحد .

ارتجف مسيو ديدوا كما لو أنه تلقى ضربة شديدة ، وقال فى صوت ينم عن انفعاله:

ـ كلا .. إن هذا غير معقول .

ـ لماذا ؟

ـ لماذا ؟ فكر جيداً فى الأمر .

ـ ولكن ، امض فى تفكيرك أيها الرئيس .. وتكلم .

ـ ماذا ؟ كلا .. هذا محال .. لايمكن أن يكون سبارمييننتو شريكاً للوبين .

ضحك جانيمار مستهزئاً وقال : تماماً . شريك لأرسين لوبين .. وبهذا يتضح كل شئ .. فأثناء الليل .. وبينما المفتشون الثلاثة يسهرون فى الطابق الأرضى ، أو بالأحرى ، بينما كانوا نائمين ، لأن الكولونل سبارمييتتو ربما دس لهم مخدراً فى الشمابنيا ، أقول أن الكولونل أنزل السجاجيد ونقلها إلى الخارج من غرفته ، وهى تقع كما تعلم فى الطابق الثانى ، وتطل على شارع آخر لم يكن يخضع لأية رقابة أو أية حراسة ، مادامت نوافذ الطابقين الأرضى والأول قد سدت .

فكر مسيو ديدوا ثم هز كتفيه وقال : هذا محال .

ـ لماذا ؟

ـ لأن الكولونل سبارمييتتو ما كان ينتحر لو أنه شريكاً للوبين .. خصوصاً بعد أن نجحت السرقة .

ـ ومن يقول أنه انتحر ؟

ـ كيف ؟ .. ألم يجدوا . جثته ؟

ـ أعود فأقول لك أن لوبين لايمكن أن يتسبب فى موت أحد .

ـ ومع ذلك فقد مات سبارمييتتو ، وتعرفت زوجته على جثته .

ـ كنت أتوقع منك أن تقول هذا أيها الرئيس .. أنا الآخر أزعجنى هذا الأمر جداً ، لأننى رأيت أرسين لوبين *أولاً* ثم شريكه الكولونل سبارمييتتو *ثانياً* ، وجثته *ثالثاً* .. وكان هذا كثيراً بالنسبة لى .

وأمسك جانيمار ببعض الجرائد وناول إحداها لمسيو ديدوا .. وهو يقول :

ـ لعلك تتذكر أننى كنت أتصفح بعض الجرائد عندما قدمت أول مرة .. كنت أبحث إذا لم يكن قد وقع حادث يمكن أن يكون له علاقة

بقصتنا هذه ، ويؤكد نظريتى .. فتكرم وأقرأ هذا النبأ .

"أبلغنا مراسلنا بحادث غريب وقع فى مدينة ليل ، فقد اختفت صباح أمس من معرض الجثث فى تلك المدينة جثة رجل مجهول ألقى بنفسه تحت عجلات الترام.ولايعرف أحد سبب هذا الاختفاء الغريب".

راح مسيو ديدوا يفكر ثم قال : إذن ؟ ماذا تعتقد ؟

ـ أجاب جانيمار : أننى قدمت من ليل .. والتحقيق الذى قمت به لا يرقى إليه أى شك من هذه الناحية .. اختفت الجثة فى نفس الليلة التى أقام فيها الكولونل سبارميينتو حفلته ، ونقلت فى سيارة إلى فيل دافرى مباشرة .. وبقيت بجوار شريط السكة الحديد حتى المساء .

قال مسيو ديدوا : بالقرب من النفق ؟

ـ أجل أيها الرئيس .

ـ بحيث أن الجثة التى عثروا عليها هى تلك الجثة ، وقد ألبست ثياب الكولونل سبارميينتو ؟

ـ تماماً .

ـ ولكن لماذا كل تلك الأحداث إذن ؟ لماذا يسرق سجادة فى البداية ثم يعيدها ، ثم يسرق السجاجيد الاثنتى عشرة بعد ذلك ؟ ولماذا تلك الحفلة ؟ وتلك الضجة ؟ وكل شئ ؟ إن قصتك غير متماسكة يا جانيمار .

ـ أنها غير متماسكة لأنك توقفت مثلى فى منتصف الطريق من فرط غرابتها.. ومع ذلك فقد كان لابد لى من الذهاب بعيداً ، بعيداً نحو غير المعقول ، والمذهل .. ومهما يكن فلم لا ؟ أفلا يتعلق الأمر بأرسين لوبين ؟ ألايجب أن نتوقع منه كل ما هو غريب وشاذ ؟ ألايجب أن نواجه أكثر النظريات جنوناً.. وعندما أقول أكثرها جنوناً فليست

الكلمة صحيحة .. وكل ذلك ، على العكس منطقى وبسيط جداً .. شركاء .. ولماذا ؟ مادام من الأسهل والطبيعى أن يتصرف بنفسه ، شخصياً ، بيديه هو بالذات ، وبوسائله فحسب .

صاح مسيو ديدو فى ذعر كان يتزايد مع كل لحظة : ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟

ضحك جانيمار مستهزئاً مرة أخرى وقال : إن الأمر يذهلك أيها الرئيس .. كما حدث معى تماماً كنت مخبولاً من فرط الدهشة ، ومع ذلك فقد مضيت فيها إلى النهاية .. فإننى أعرف لوبين ، وأعرف ما يمكن أن يكون جديراً به .

وعاد مسيو ديدوا يقول : هذا مستحيل .. مستحيل ..

ـ بل على العكس ممكن أيها الرئيس ، ومنطقى تماماً ، وواضح كل الوضوح .. إنه تجسيد بسيط لرجل واحد .. وأن طفلاً ليحل طلاسم هذه القضية فى دقيقة باستبعاد بسيط .. لنستبعد جثة الميت فيبقى أمامنا سبارمييتتو ولوبين .. ولنستبعد سبارمييتتو ..

تمتم رئيس البوليس : فيبقى أرسين لوبين .

ـ نعم .. يبقى لوبين وحده .. لوبين وقد عاد من بين الأموات .. لوبين الذى تحول قبل ذلك بستة شهور إلى الكولونل سبارمييتتو .. وأثناء وجوده فى بريتانى يعلم بنبأ العثور على الاثنتى عشرة سجادة فيشتريها، ثم يدبر سرقة أجمل واحدة منها لإلفات النظر إليه .. ولكى يبعد عنه الأنظار يدبر سبارمييتتو تلك الحفلة بصورة مروعة ويروع مدعويه .. وعندما يتم الإعداد لكل ما يريد يبدأ العمل ويسرق باسم لوبين ويختفى سبارمييتتو، ضحية لوبين ، ويموت من غير أن ترقى إليه الشبهات ، ومن غير أن يشك فيه أحد ، تاركا خلفه زوجة لكى تجنى مكاسب العملية .

وهنا أمسك جانيمار عن الكلام ، ونظر إلى رئيسه كأنه يستدعى انتباهه لأهمية ما سوف يقول ثم استطرد :

ـ تاركاً خلفه أرملة شديدة الحزن .

ـ مدام سبارمينتو ؟ هل تعتقد حقاً ؟

قال : أن لوبين لايدبر عملية كهذه دون أن يكون فى نهايتها .. مكاسب كبيرة .

ـ ولكن يبدو لى أن المكاسب كان يمكن تحقيقها ببيع السجاجيد .. فى أمريكا أو فى أى بلد آخر .

ـ هذا صحيح .. ولكن سبارميينتو كان يمكنه أن يبيعها بنفسه .. وإذن فهناك شئ آخر .

ـ شئ آخر ؟

ـ نعم ، أيها الرئيس .. فلاتنس أن الكولونل سبارميينتو كان ضحية سرقة كبيرة ، وأنه إذا كان قد مات فإن أرملته على قيد الحياة .. وأرملته هى التى ستقبض إذن .

ـ تقبض ماذا ؟

ـ ماذا ؟ ما تستحقه طبعاً .. قيمة التأمين .

دهش مسيو ديدوا .. بدت له القضية فجأة بكل ما فيها من معنى حقيقى . وقال :

ـ هذا صحيح .. هذا صحيح .. فقد أمن الكولونل على سجاجيده .

ـ طبعاً .. وبمبلغ كبير .

ـ كم ؟

ـ ثمانمائة ألف فرنك .. موزعة على خمس شركات مختلفة .

ـ وهل حصلت مدام سبارمييننتو كل هذه المبالغ ؟

ـ إنها حصلت على مائة وخمسين ألف فرنك أمس ومائتى ألف فرنك اليوم ، أثناء غيابى .. أما المبالغ الأخرى فيجب أن تحصلها خلال هذا الأسبوع .

ـ ولكن هذا فظيع .. كان يجب .

ـ ماذا أيها الرئيس .. إنهما انتهزا فرصة غيابى لتحصيل هذه المبالغ ، وعند عودتى التقيت فجأة بمدير إحدى شركات التأمين ، أعرفه منذ مدة طويلة ، وبحديث معه عرفت الأمر .

لزم مدير البوليس الصمت لحظة طويلة وهو مشدوه ثم قال :

ـ يا له من رجل على كل حال !

هز جانيمار رأسه وقال : نعم ، أيها الرئيس .. إنه وغد .. ولكن يجب أن أعترف بأنه رجل شديد المراس .. فلكى تفلح خطته كان لابد من أن يناضل أثناء أربعة أو خمسة أسابيع ، وما كان لأحد أن يشتبه أبداً فى الكولونل سبارمييننتو.. كان يجب أن تتركز كل الأحقاد وكل الأبحاث على لوبين وحده ، وأن نجد أنفسنا فى نهاية الأمر أمام أرملة محزونة وهى أديث العنقاء ، فتاة الأسطورة ، والمخلوقة الرقيقة التى يسعد رجال التأمين أن يضعوا بين يديها ما يخفف حزنها، وهذا ما حدث .

وكان الرجلان ، كل منهما بجوار الآخر ، ينظران إلى بعضهما البعض ملياً ، وقال الرئيس : ومن هى تلك المرأة ؟

ـ سونيا كريشنوف .

ـ سونيا كريشنوف ؟

ـ نعم .. تلك الروسية التى اعتقلتها فى العام الماضى فى قضية

التاج المسروق والتى ساعدها لوبين على الهرب .

ـ هل أنت واثق ؟

ـ كل الثقة .. وقد حيرنى لوبين إلى درجة أننى أهملت الاهتمام بها هى .. ولكن ، عندما عرفت الدور الذى تقوم به تذكرت أنها سونيا ، وقد تنكرت فى صورة انجليزية .. سونيا التى لا تتردد فى مواجهة الموت فى سبيل لوبين .

وافقه مسيو ديدوا قائلاً : إنه لصيد ثمين ياجانيمار .

ـ بل لدى ما هو أفضل لتقديمه إليك .

ـ وما هو ؟

ـ مرضعة لوبين العجوز .

ـ فيكتوار ؟

ـ إنها هنا منذ أن قامت مدام سبارمييتنو بدور الأرملة .. إنها الطاهية .

قال مسيو ديدوا : أوه .. أوه .. لك تهانئى ياجانيمار .

ـ مازال لدى ما هو أفضل أيها الرئيس .

أجفل مسيو ديدوا .. وكانت يد المفتش العام ترتعش فى يده .

ـ ماذا تعنى ياجانيمار ؟

ـ أتظن أيها الرئيس أننى كنت أزعجك فى هذه الساعة لمثل هذا الصيد .

سونيا وفيكتوار .. كان فى إمكانى أن أنتظر .

تمتم مسيو ديدوا وقد أدرك أخيراً سبب اضطراب المفتش العام .

ـ وإذن ؟

ـ ألم تخمن بعد أيها الرئيس ؟

ـ هل هو هنا ؟

ـ إنه هنا .

ـ مختبئاً ؟

ـ أبداً ، وإنما متنكر فحسب .. إنه الخادم .

لم يبد مسيو ديدوا أية حركة هذه المرة ، ولم ينطق ، فإن شجاعة لوبين أذهلته .. وضحك جانيمار ساخراً وقال :

ـ لقد زاد الثالوث المقدس بشخص رابع .. كان يمكن أن تقوم أديث العنقاء بأخطاء، وكان لابد من وجود الرئيس ، وقد جرؤ وعاد ، منذ ثلاثة أسابيع وهو يحضر تحقيقاتى ويراقب تقدمها فى هدوء .

ـ هل عرفته ؟

ـ لا أحد يعرف لوبين .. أن له دراية تامة بفنون المكياج ، ويتحول من شخصية إلى أخرى بحيث لايمكن لأحد أن يعرفه .. ثم أنه ما كان ليخطر لى أبداً .. ولكن هذه الليلة ، وبينما كنت أراقب سونيا وأنا مختبئ تحت السلم سمعت فيكتوار تخاطب الخادم وتدعوه "صغيرى" وسطع الضوء فى ذهنى على الفور فهى تدعو لوبين هكذا دائماً .

بدا مسيو ديدوا مبلبل الخاطر بدوره هو الآخر لوجود العدو الذى طالما طارده ولم يستطع إلقاء القبض عليه أبداً .. وقال فى صوت أصم :

ـ إنه وقع فى أيدينا أخيراً .. ولايستطيع أن يهرب .

ـ كلا ياسيدى .. إنه لن يستطيع ، لا هو ولا المرآتان .

ـ وأين هم ؟

ـ سونيا وفيكتوار فى الطابق الثانى أما لوبين ففى الطابق الثالث .

قال مسيو ديدوا وقد أحس بالقلق فجأة : ولكن ، ألم يمرر من نوافذ تلك الغرف السجاجيد عندما اختفت ؟

ـ نعم .

ـ إذا كان الأمر كذلك فيمكن للوبين أن يهرب منها أيضاً ، مادامت هذه النوافذ تفضى إلى شارع دوفرينوى .

ـ طبعاً أيها الرئيس .. ولكننى اتخذت احتياطاتى ، فبمجرد قدومك أرسلت أربعة من رجالنا تحت نافذة شارع دوفرينوى وأصدرت إليهم أوامر قاطعة .. إطلاق الرصاص على أى أحد يظهر فى النوافذ ويحاول الهرب ، الرصاصة الأولى فى الهواء ، والثانية فى الصميم .

ـ إذن فقد فكرت فى كل شئ ياجانيمار ، وما أن يطلع النهار .

ـ وهل يجب أن ننتظر أيها الرئيس ؟ هل يجب مراعاة الأصول مع مثل هؤلاء الأوغاد ؟ وماذا لو استطاع الهرب أثناء ذلك .. ماذا لو لجأ إلى إحدى ألاعيبه التى لانعرفها ، كلا .. إنه وقع فى أيدينا ، ولابد أن نعتقله الآن فوراً .

وخرج جانيمار وهو ساخط ونافذ الصبر، واجتاز الحديقة وأدخل ستة من رجاله ثم عاد وقال :

ـ قضى الأمر أيها الرئيس .. وقد أصدرت الأمر إلى الرجال الذين يراقبون شارع دوفرينوى بإشهار مسدساتهم وتصويبها نحو النوافذ .. هيا بنا .

وكانت تلك التحركات قد أحدثت ضجة ما، لم تغب عن سكان البيت بالطبع ، وأحس مسيو ديدوا بأنه لا مناص من أن يبدأ العمل فقال :

ـ هلم بنا .

وصعد الرجال الثمانية السلم ومسدساتهم فى أيديهم دون إبداء أى حرص فى لهفتهم على مفاجأة لوبين قبل أن يسعفه الوقت لتدبير دفاعه .

وصاح جانيمار وهو يندفع على باب الغرفة التى تقيم فيها مدام سبارميينتو :

- افتحوا .

ودفع أحد رجال الشرطة الباب وحطمه .

ولكنهم لم يجدوا أحداً فى الغرفة .. ولم يكن هناك أحد كذلك فى غرفة فيكتوار .. وصاح جانيمار :

- إنهما فوق .. لقد انضما إلى لوبين فى غرفته فتوخوا الحذر .

وصعد الرجال الثمانية إلى الطابق الثالث وكم كانت دهشة جانيمار عندما وجد باب الغرفة مفتوحاً على مصراعيه والغرفة شاغرة .

وكانت جميع الغرف الأخرى شاغرة هى الأخرى فصاح :

- يا للشيطان ! أين ذهبوا ؟

ولكن الرئيس ناداه ، وكان قد هبط إلى الطابق الثانى ولاحظ أن إحدى النوافذ لم تكن محكمة الغلق وإنما مردودة فحسب .. وقال يخاطبه :

- ها هو الطريق الذى سلكوه .. نفس طريق السجاجيد .. لقد قلت لك ذلك .. شارع دوفرينوى .

قال جانيمار وهو يتميز غضباً : ولكن بالشارع حراسة .. ولو أنهم هربا من هذا الطريق لأطلق رجالنا الرصاص عليهم .

- ذلك أنهم هربوا قبل حراسة الشارع .

ـ كان الثلاثة فى غرفهم عندما اتصلت بك بالتليفون .

ـ هربوا بينما كنت تنتظرنى بجوار الحديقة .

ـ ولكن كيف .. ولماذا ؟ لم يكن هناك أى سبب يحدوهم إلى الهرب اليوم بدلاً من الغد أو بدلاً من الأسبوع المقبل .. بعد أن يحصلوا جميع المبالغ المؤمن عليها .

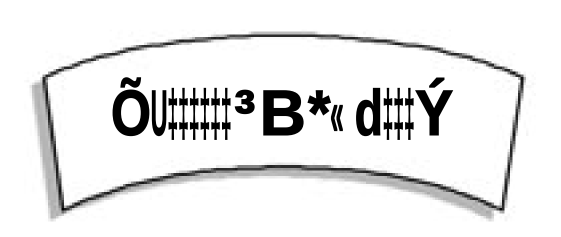
بل كان هناك سبباً ، عرفه جانيمار عندما رأى على إحدى المناضد رسالة باسمه ، وعندما فضها وعرف مضمونها :

"أنا الموقع أدناه ، أرسين لوبين ، اللص الشريف ، والكولونل سبارمييتو سابقاً، والخادم سابقاً، والجثة سابقاً ، أشهد بأن المدعو جانيمار أثبت أثناء إقامته فى هذا البيت بأنه يتمتع بأحسن المزايا ، وبسلوك سليم وبأنه مخلص ويقظ ، وأنه أفسد جزءاً من خططى بدون مساعدة من أحد ، وأنقذ شركات التأمين من دفع أربعمائة وخمسين ألف فرنك .. وإننى أهنئه على ذلك ، وألتمس له العذر طواعية لأنه لم يتوقع أن التليفون الموجود بالطابق الأرضى متصل بالتليفون الموجود فى غرفة سونيا كريشنوف ، وأنه باتصاله برئيس البوليس اتصل بى فى نفس الوقت لكى أبادر بالفرار بأسرع ما يمكن .. وهذه غلطة طفيفة لايمكن أن تعتم بريق خدماته أو أن تقلل من قيمة انتصاره .

ولهذا أرجو أن يتفضل بقبول اعجابى الشديد بمقدرته وبخالص حبى ومودتى .

أرسين لوبين





جلس شرلوك هولمز وواطسون ، كل منهما على جانب من الموقد ، يستدفئان وكان غليون هولمز قد انطفأ ، فأفرغ منه الرماد ثم حشاه ثانية وأشعله ، وجمع حول ركبتيه طرفى الروب دى شامبر ، وأخذ يطلق سحابات طويلة من الدخان نحو السقف .

وراح واطسون ينظر إليه كما ينظر الكلب الوفى إلى صاحبه ، وهو يتساءل هل يقطع الأستاذ حبل الصمت ويعترف له بما يجول بخاطره من أفكار ، وإذ رآه يلزم الصمت نهض واقترب من النافذة .. وكان الشارع الحزين يمتد بين البيوت الكئيبة، تحت سماء يهطل منها مطر غزير وعنيف .. ومرت مركبة ، ثم أخرى ، ولم يلبث أن صاح يقول :

ـ آه .. ها هو ساعى البريد .

وما هى إلا لحظة حتى دخل الساعى خلف الخادم وقال :

ـ رسالتان مسجلتان ياسيدى .. هل لك أن توقع هنا .

وقع هولمز باستلام الرسالتين ، وشيع الساعى حتى الباب ، ثم عاد وهو يقفل إحدى الرسالتين وقال وهو يخاطب واطسون :

ـ هذه الرسالة تأتينا بقضية هامة ، كما كنت تنشد ، فاقرأ .

وقرأ واطسون مايلى :

"سيدى

أرسل إليك هذه ، انشد معونتك ، فقد رحت ضحية سرقة هامة ، ولم تسفر الأبحاث التى قمنا بها حتى الآن عن أية نتيجة .

وأرسل إليك بنفس البريد بضع جرائد تناولت هذه القضية ، فإذا شئت الاضطلاع بها فسأضع بيتى تحت تصرفك ، وأرجوك أن تحدد بنفسك المبلغ الذى تراه كافياً لنفقات سفرك .

وأرجو أن تتكرم بابلاغى ببرقية ، وإليك خالص تحياتى"

البارون فيكتوار دامبرفيل

١٨ شارع موريللو ٥٠"

وقال هولمز : آه . هذا عظيم .. رحلة إلى باريس .. ولم لا ؟ . فمنذ نضالى المشهور مع أرسين لوبين لم تواتنى الفرصة للعودة إليها ، وسوف يروق لى أن أرى عاصمة الدنيا فى ظروف أحسن .

ومزق الشيك إلى أربع قطع .. وبينما كان واطسون يصف باريس بأقبح الصفات ، خاصة وأن ذراعه كان لايزال متوتراً ولم يعد بعد إلى ليونته العادية ، فضم الرسالة الثانية ، وما كاد يلقى عليها نظرة حتى بدرت منه كلمة سخط، وعبست أساريره، وطوح بها إلى الأرض بعد أن فركها فى يده وكورها ، فصاح واطسون مفزوعاً :

ـ ماذا .. ما الخبر ؟

والتقط الرسالة المكورة ، وبسطها وقواها والدهشة تستبد به :

"استاذى العزيز :

أنت تعرف مدى إعجابى واهتمامى بك ، ولهذا أرجوك ألاتقبل المهمة التى يلتمسون مساعدتك فيها ، ذلك لأن تدخلك سيتسبب فى أضرار كبيرة ، ولن تكون نتيجة الجهد الذى ستبذله إلا الفشل وستضطر أنت نفسك أن تجهر بفشلك علانية .

"وإنى إذ أتمنى أن أجنبك هذه المهانة أتوسل إليك، باسم صداقتنا أن تلزم بيتك وأن تقبع بجوار النار فى هدوء .

"تحياتى الخالصة لك أيها الأستاذ العزيز ولمستر واطسون .

أرسين لوبين"

هتف واطسون مشدوها : أرسين لوبين !

راح هولمز يهوى بقبضته على المنضدة وهو يقول :

ـ آه .. إن هذا الحيوان بدأ يضاقنى ، وهو يسخر منى ، كما لو كنت طفلاً .. أجهر بفشلى علانية .. ألم أرغمه على إعادة الماسة الزرقاء ؟

قال واطسون : إنه يخاف .

ـ إنك أحمق .. إن أرسين لوبين لايخاف أبداً، والدليل على ذلك أنه يتحدانى .

ـ ولكن كيف عرف بأمر الرسالة التى أرسلها إلينا البارون دامبرفيل ؟

ـ وإنى لى أن أعلم .. إنك تلقى أسئلة حمقاء ياعزيزى .

ـ خطر لى .. تصورت .

ـ خطر لك أننى ساحر !

ـ كلا .. ولكننى رأيتك تأتى بمعجزات .

ـ لا أحد يأتى بمعجزات .. لا أنا ولاغيرى .. إننى أفكر وأستنتج ، واستدل .. ولكننى لا أخمن ، فلايخمن إلا الأغبياء .

تظاهر واطسون بتواضع كلب مغلوب على أمره ، وبذل جهده لكى لايكون غبياً ، ولكى لايخمن لماذا راح هولمز يذرع أرض الغرفة جيئة

وذهاباً، بخطوات كبيرة غاضبة.. ولكن عندما دق هولمز الجرس يستدعى خادمه وعندما أمره أن يعد حقيبته لم يسعه إلا أن يسأله .

- هل أنت ذاهب إلى باريس ياهولمز ؟

- يحتمل .

- وأنت ذاهب رداً على تحدى لوبين أكثر منه خدمة للبارون دامبرفيل .

- يحتمل .

- سأصحبك ياهولمز .

توقف هولمز وقال : آه .. آه .. ألاتخشى أن يصيب ذراعك اليسرى ما أصاب ذراعك اليمنى ؟

- وماذا يمكن أن يقع لى وأنت معى ؟

- حسناً .. أنت شجا ع ، وسوف نثبت لذلك السيد أنه ربما اخطأ بتحديه لى بكل هذه الوقاحة .. هيا يا واطسون لكى نلحق بأول قطار .

- ألن تنتظر الجرائد التى قال البارون أنه أرسلها إليك .

- وما الجدوى من ذلك ؟

- هل أرسل إليه برقية ؟

- كلا .. فإن لوبين سيعرف عندئذ أننى قادم ، ولا أريده أن يعرف ذلك . يجب أن نتوخى كل الحرص هذه المرة .

هبط الصديقان فى ميناء دوفر بعد ظهر اليوم نفسه .. وكان الجو صحواً أثناء الرحلة فى القطار السريع من كاليه إلى باريس التى استغرقت ثلاث ساعات قضاها هولمز فى نوم عميق .. واستيقظ

سعيداً ويقظاً ، فإن توقع صراعاً جديداً مع أرسين لوبين جعله يشعر بمتعة غريبة .. وراح يفرك يديه بفرحة رجل يستعد لكى ينهض من مسرات كثيرة .

وخرج من المحطة وكله نشاط ، بعد أن ارتدى المعطف الذى يميزه .. وكان الزحام شديداً ، وقد راقه ذلك وقال :

ـ هذا أفضل ياواطسون ، فلن بجازف بأن يعرفنا أحد وسط هذا الجمع من الناس .

ولكنه ما كاد يتقدم بضع خطوات حتى سمع من يقول له : مستر هولمز ، أليس كذلك ؟

توقف مشدوهاً بعض الشئ ، فمن ذلك الشيطان الذى يشير إليه باسمه ؟ ورأى بجواره إمرأة شابة ترتدى ثوباً بسيطاً مميزاً ، ووجها الجميل به مسحة من القلق والحزن .. وعادت تقول :

ـ أنت مستر هولمز طبعاً .

قال فى صوت خشن : ماذا تريدين ؟

ـ اصغ إلى ياسيدى .. إن الأمر خطير جداً، وأنا أعرف أنك ذاهب إلى شارع موريللو .. رقم ١٨ .. ولكن لايجب أن تمضى إليه أؤكد لك أنك سوف تندم على ذلك ، وتظن أن لى أية مصلحة وإنما اتكلم بحق وبكل صراحة .

حاول أن يقصيها عن طريقه ، ولكنها راحت تقول فى إصرار :

ـ أرجوك ياسيدى .. لاتكن صلب الرأى .. آه ، لو أعرف كيف أقنعك .. أنظر إلى عينى.. إنهما ينطقان بالصراحة ، ويقولان الحقيقة .

وقدمت إليه عينيها .. عينين رزينتين، صافيتين كأنهما تعكسان

روحها هى بالذات.. وهز واطسون رأسه وقال :

ـ يبدو أن الآنسة صادقة .

قالت : بكل تأكيد ، ويجب أن تثق بى .

أجاب واطسون : إننى أثق بك يا آنسة .

ـ أوه ما أسعدنى إذن .. وصديقك أيضاً، أليس كذلك ؟ أوه .. إننى متأكدة .. سيكون كل شئ ما يرام .. وإنها لفكرة جميلة تلك التى خطرت لى . اصغ إلى ياسيدى .. هناك قطار سينطلق إلى كاليه بعد عشرين دقيقة .. سوف تستقله إذن . تعالى معى . الطريق من هنا . وليس أمامك الكثير من الوقت .

وحاولت أن تجر هولمز ، ولكنه أمسكها من ذراعها ، وقال فى رفق بقدر ما استطاع :

ـ معذرة يا آنسة .. لايمكننى تلبية رغبتك ، فإننى لا أتخلى أبداً عن مهمة تناط بى .

ـ أتوسل إليك .. أتوسل إليك .. آه ، لو تستطيع أن تفهم .

بيد أنه تجاوزها ، وابتعد مسرعاً .. وقال واطسون يخاطبها :

ـ تذرعى بالأمل .. سيمضى حتى نهاية المهمة .. وهو لم يعرف الفشل فى حياته .

وراح يجرى لكى يلحق بهولمز .

؟ ؟ ؟

شرلوك هولمز وأرسين لوبين

ظهرت هذه الحروف الكبيرة ، وقابلتهما عند أول خطواتهما ، فقد سار عدد من الرجال ، بعضهم خلف بعض وفى أيديهم عصى محددة

راحوا يدقون بها على الأرض فى رتابه ، وعلى ظهورهم لافتات ضخمة هذا نصها بالترتيب :

"مباراة بين شرلوك هولمز وأرسين لوبين .. وصول البطل الانجليزى .. المخبر السرى الكبير للكشف عن غموض لغز شارع موريللو .. اقرأ التفاصيل فى جريدة ايكو دى فرانسى ."،

تقدم شرلوك إلى أحد هؤلاء الرجال وفى نيته أن يمسك قبلا يديه ويحطمه تحطيماً هو واللوحة التى فى يده .. ولكن الجمهور كان قد تجمع حول هذه اللوحة فكظم غيظه وسأل الرجل قائلاً :

ـ متى طلبوا منك القيام بهذه العملية ؟

ـ صباح اليوم .

ـ ومتى بدأت عملك ؟

ـ منذ ساعة .

ـ وهل كانت اللوحات جاهزة .

ـ آه ، نعم .. عندما ذهبت هذا الصباح إلى الوكالة كانت جاهزة .

إذن توقع أرسين لوبين أن هولمز سيقبل الصراع ، بل الأكثر من هذا، إن الخطاب الذى أرسله إليه يثبت أنه يتمنى هذا الصراع وأنه ينوى منازلته مرة أخرى ، فلماذا، وأى سبب يدفعه إلى هذا النضال .

بدا التردد على هولمز لحظة .. لابد حقاً أن لوبين واثق من الفوز مادام قد أبدى مثل هذه الوقاحة .. إن إسراعه فى القدوم هكذا ، عند أول نداء ، يعنى أنه قد وقع فعلاً فى الفخ .. ومع ذلك فقد هتف يقول فى طفرة من النشاط :

ـ هلم بنا ياواطسون.. أيها السائق، امض بنا إلى رقم ١٤، بشارع موريللو .

ووثب إلى المركبة وقد انتفخت عروقه .. وانضمت قبضتاه ، كما لو كان ماضياً إلى حلبة الملاكمة .

¿ ¿ ¿

وبشارع موريللو بنايات فخمة خاصة ، تطل واجهاتها على حديقة مونسو ، والبيت رقم ١٨ واحد من تلك المبانى الجميلة ، ويقيم فيه البارون هو وزوجته وأبنتاه ، وقد أثثه وفرشه بأفخم أنواع الأثاث ، وبطريقة فنية تدل على ذوقه الرفيع وساعدته على ذلك ثروته الطائلة ، لأنه يعتبر من أصحاب الملايين .. ويتقدم البيت فناء فسيح ، وتحف به من اليمين واليسار ملحقات الخدمة ، وفى الخلف حديقة تشارك بأغصانها حديقة مونسو .

وبعد أن دقا الجرس ، اجتاز الانجليزيان الفناء واستقبلهما خادم تقدمهما إلى صالون صغير.. وجلسا وألقيا نظرة فاحصة على الأشياء الثمينة التى بالمكان .. وقال واطسون :

ـ أشياء جميلة ، تدل على الذوق وحب الجمال .. ويمكن أن نستنتج أن الذين اتسع وقتهم لجمع هذه النفائس أناس متقدمون فى العمر .. ربما فى الخمسين من أعمارهم .

ولم يزد فقد انفتح الباب ، ودخل مسيو دامبرنال ، تتبعه زوجته ، وخلافاً لاستنتاج واطسون ، كان كل منهما فى مقتبل الشباب ، تتسم هيئتهما بالأناقة والدقة ، وغالياً فى تقديم الاعتذارات :

ـ إنهما لمكرمة كبيرة منكما .. مثل هذا الإزعاج .. إننا سعيدان تقريباً .. لإزعاجنا إياكما مادام هذا الإزعاج قد تسبب فى سرورنا .. ولكن الوقت من ذهب ، ووقتك أنت بالذات يامستر هولمز.. ولهذا سأمضى إلى الغاية قدماً .

مارأيك فى هذه القضية، وهل هناك أمل فى إنجازها على مايرام ؟

ـ ولكن يجب أن أعرف تفاصيلها أولاً .

ـ ألم تعرفها ؟

ـ كلا .. وأرجوك أن تشرح لى الأمر بالتفصيل ، ومن غير أى سهو .

ـ الأمر يتعلق بسرقة .

ـ ومتى وقعت ؟

أجاب البارون : يوم السبت الماضى .

ـ منذ ستة أيام إذن .. أنا مصغ إليك الآن .

ـ يجب أن أقول لك أولاً أننى أنا وزوجتى ، رغم أننا نعيش الحياة التى يتطلبها مركزنا الإجتماعى ، فإننا لانخرج إلا قليلاً .. تربية البنتين وبعض الحفلات والإشراف على تجميل قصرنا .. هذه هى حياتنا .. وكل أمسياتنا أو أكثرها تقريباً نقضيها هنا ، فى هذه الغرفة، وهى الصالون الخاص بزوجتى ، حيث جمعنا بعض التحف .. وعليه ففى نحو الساعة الحادية عشرة من مساء يوم السبت الماضى أطفأت النور ، ومضيت وزوجتى كما هى العادة على غرفتنا .

ـ وتقع ؟

ـ بجوار هذه الغرفة .. هذا الباب الذى تراه .. وفى اليوم التالى ، أى يوم الأحد ، استيقظت فى ساعة مبكرة.. ولما كانت زوجتى ، سوزان ، لاتزال نائمة فقد جئت إلى هذه الغرفة ، بقدر ما أمكننى من هدوء ، حتى لا أوقظها .. ودهشت إذ وجدت هذه النافذة مفتوحة ، مع إننا تركناها بالأمس مغلقة .

ـ قد يكون أحد الخدم ؟

ـ لا أحد يدخل هنا قبل أن ندق الجرس، ثم إننى أحرص دائماً

على أن أضع المزلاج خلف هذا الباب الثانى الذى يتصل بالردهة .. وهذا يدل على أن النافذة فتحت إذن من الخارج .. ولم ألبث أن وجدت الدليل على ذلك ، فإن لوح الزجاج الثانى للمصراع الأيمن قد قطع بجوار الترباس .. والنافذة كما يمكنك أن ترى تؤدى إلى بقعة منبسطة تحيط بها شرفة حجرية ، ونحن هنا فى الطابق الأرضى ، وترى منه الحديقة التى تمتد خلف البيت ، والباب الذى يفصلها عن حديقة مونسو .. ومن المؤكد إذن أن الرجل أقبل من حديقة مونسو ، واجتاز الباب بواسطة سلم ، وصعد إلى الشرفة .. وقد وجدنا ، تحت الباب آثار السلم ، ونفس الآثار موجودة تحت الشرفة.. ثم إن الشرفة نفسها بها خدشان أحدثهما قائما السلم .

ـ وحديقة مونسو ؟ ألاتغلق ليلاً ؟

ـ كلا.. ولكن هناك بيت جارى بناؤه ، فى رقم ١٤، ومن السهل الدخول منه .

فكر شرلوك هولمز بضع لحظات ثم قال :

ـ لنتكلم عن السرقة الآن .. وقعت إذن فى الغرفة التى نحن فيها الآن ؟

ـ أجل .. كان بين لوحة هذه العذراء التى يرجع عهدها إلى القرن الثامن عشر وهذا التمثال الفضى مصباح صغير أثرى ، وقد اختفى .

ـ وهل هذا كل شئ ؟

ـ نعم .

ـ وهل لهذا المصباح قيمة ما ؟

ـ إنه من تلك المصابيح النحاسية التى كانت تستخدم فيما سبق ،

له ساق وبه وعاء لوضع الزيت ، وبذلك الوعاء بضعة ثقوب خاصة للفتائل .

ـ صفوة القول ، ليس له أية قيمة تذكر .

ـ ليست له قيمة كبيرة فى الواقع .. ولكن كان به مخبأ اعتدنا أن نخفى فيه جوهرة نفيسة قديمة .. تحفة ذهبية مرصعة بالياقوت والزمرد ولها قيمة كبيرة جداً .

ـ ولم هذه العادة ؟

ـ الحق أننى لا أعرف ماذا أقول ياسيدى ، لعل استخدامنا لهذا المخبأ كان مجرد لهو .

ـ ألم يكن أحد يعرف ذلك ؟

ـ كلا .

اعترض هولمز : فيما عدا الذى سرق التحفة طبعاً ، وإلا ما كان ليزعج نفسه ليسرق المصباح .

ـ طبعاً .. ولكن كيف نتمكن من معرفة ذلك المخبأ ، مادامت الصدفة وحدها هى التى كشفت لنا عن كيفية استخدامه .

ـ ربما كشفته نفس الصدفة لأحد الخدم ، أو لأحد المترددين على البيت .. ولكن لنستمر .. هل أبلغت البوليس ؟

ـ بكل تأكيد.. وقد قاموا بالتحقيق ، كما قام مخبرو الصحف المهتمون بمثل هذا النوع من القضايا بالتحقيق هم الآخرون . ولكن يبدو ، كما كتبت لك ، أن القضية معقدة ولايمكن حلها على الإطلاق .

نهض هولمز ، وسار نحو النافذة .. وفحصها، كما فحص البقعة المنبسطة والشرفة ، واستخدم عدسته المكبرة فى فحص الخدشين، وطلب من مستر دامبرفيل أن يمضى به إلى الحديقة .

وفى الخارج ، جلس على مقعد من الخيزران . ونظر إلى سطح البيت وهو يفكر بعمق ثم اتجه فجأة نحو صندوقين من الخشب استخدما فى تغطية أثار السلم . ورفعهما وجثا على ركبتيه ، وفحص الجدران . وقام ببعض القياسات ، ونفس العملية بجوار البوابة .

وكان هذا كل شئ .

؟ ؟ ؟

وعندما عاد إلى الصالون الصغير لزم هولمز الصمت بضع دقائق ثم قال :

ـ منذ أن بدأت قصتك ياسيدى البارون دهشت من بساطة العملية .. فوضع سلم ، وقطع لوح من الزجاج واختيار شئ بالذات وسرقته ثم المضى بكل بساطة ، إن الأمور لاتجرى بمثل هذه السهولة .

ـ والمعنى ؟

ـ المعنى أن سرقة المصباح قد تمت تحت إشراف أرسين لوبين هتف البارون مشدوهاً : أرسين لوبين ؟

ـ ولكنها تمت بعيداً عنه ، ومن غير أن يدخل هذا البيت .. لعل أحد الخدم هبط من غرفته مستخدماً ماسورة رأيتها فى الحديقة .

ـ ولكن علام تستند فى قولك هذا ؟

ـ ما كان أرسين لوبين ليخرج من هذه الغرفة صفر اليدين .

ـ صفر اليدين ؟ والمصباح ؟

ـ لو أنه أخذ المصباح لأخذ هذا التمثال المرصع بالماس ، أو هذا العقد من الحجر الكريم، فلم يكن أمامه إلا أن يمد يديه . وإذا لم يكن قد فعل ذلك فذلك لأنه لم يستطع .

ـ والآثار التى وجدناها ؟

- إن هى إلا خدعة حتى لانفطن إلى الحقيقة .

- والخدشان فوق الشرفة ؟

- خدعة هى أخرى ، أحدثهما ورق الصنفرة ، وإليك بعض ذرات الصنفرة ، وجدتها فوق الأرض .

- والأثار التى تخلفت عن قائما السلم .

- خدعة هى أيضاً، فبفحص الثقبين فى أسفل البقعة المنبسطة ، والثقبين الآخرين بجوار البوابة نجدهما متشابهين، ولكنهما غير متساويين ، فالمسافة بين الثقبين الأولين ٢٣ سنتيمتراً، والأخرى ، بين الثقبين الآخرين ٢٨ سنتيمتراً ، وهذا دليل على أنهما أحدثا بواسطة قطعة مستديرة من الخشب .

- إن أفضل برهان على ما تقول هو العثور على هذه القطعة الخشبية .

قال هولمز : هاهى .. إننى وجدتها فى الحديقة تحت أحد أحواض الزهور .

؟ ؟ ؟

لم يسع البارون إلا الاعتراف ببراهين هولمز ، فإن الإنجليزى لم يأت إلى البيت إلا منذ أربعين دقيقة ، ومع ذلك فقد قوض كل الأدلة والحقائق الظاهرة ، وبرزت حقائق الظاهرة ، وبرزت حقائق أخرى مبنية على أسس أخرى سليمة ، وهى استنتاجات شرلوك هولمز .. وقالت البارونة :

- إن الاتهام الذى توجهه إلى خدمنا خطير ياسيدى .. فجميعهم من الخدم القدامى المخلصين ، ولايمكن لأحد منهم أن يفكر فى خيانتنا .

ـ إذا لم يكن بينهم من يخونكم فبماذا تفسرين هذا الخطاب الذى جاءنى فى نفس اليوم الذى كتبتم إلى فيه ؟

وبسط للبارونة الخطاب الذى أرسله إليه أرسين لوبين ، فقالت مشدوهة :

ـ أرسين لوبين .. وكيف عرف ؟

ـ ألم تتكلما عن خطابكما هذا أمام أحد ؟

قال البارون : أبداً .. إنما هى فكرة خطرت لنا معاً فى نفس الوقت ، ونحن على المائدة .

ـ أمام الخدم ؟

ـ لم يكن هناك غير بنتينا و.. ولكن لا .. كانت صوفى وهنرييت قد غادرتا المائدة ، أليس كذلك ياسوزان ؟

فكرت مدام دامبرفال لحظة ثم قالت فى توكيد :

ـ هذا صحيح .. لقد انضمتا إلى الآنسة .

سألها هولمز : الآنسة ؟

ـ المربية .. الآنسة أليس ديمون ..

ـ ألا تتناول هذه الآنسة وجباتها معكم ؟

ـ كلا ، فهى تتناولها وحدها فى غرفتها .

قال واطسون : ومن الذى ألقى بالخطاب المرسل لصديقى فى صندوق البريد ؟

أجاب البارون : خادمنا دومينيك ، وهو فى خدمتنا منذ عشرين سنة ، وأى بحث فى هذه الناحية لن تكون له نتيجة .

وإذا انتهى هولمز من تحقيقه المبدئى استأذن فى الانصراف .

وبعد ساعة ، رأى أثناء الطعام صوفى وهنرييت ، ابنتا دامبرفيل ، وهما بنتان جميلتان ، فى الثامنة والسادسة من عمريهما.. وتحدثوا قليلاً.. ورد هولمز على مجاملات البارون وزوجته فى شئ من التجهم ، بحيث صمما على التزام الصمت .. وقدمت القهوة .. واحتسى هولمز قهوته ونهض .

وفى هذه اللحظة دخل خادم ومعه نص رسالة برقية باسم هولمز ، فأخذها وقرأها .

"أرسل إليك معبراً عن إعجابى الشديد، فالنتائج التى حصلت عليها فى هذا الوقت القصير مذهله .. وقد أثارت دهشتى حقاً .

أرسين لوبين "

وبدرت من هولمز حركة تدل على الضيق ، وعرض البرقية على البارون :

- لعلك تعتقد الآن ياسيدى إن لجدرانك عيوباً وآذاناً .

تمتم دامبرفال فى ذهول : إننى لا أفهم شيئاً .

- ولا أنا .. ولكن الذى أفهمه هو أن ما من حركة تقع هنا إلا ويراها هو كذلك .. ولا كلمة إلا ويسمعها أيضاً .

؟ ؟ ؟

نام واطسون فى تلك الليلة لايشغل باله شئ ، شأن الرجل الذى قام بواجبه ولم يعد هناك ما شغله إلا الاستغراق فى النوم .

ولهذا سرعان ما راح فى النوم ، ورأى أحلاماً سعيدة، كان يطارد فيها لوبين هو وحده .. ومستعد لإلقاء القبض عليه .. وأحس بشخص يتحسس فراشه فأمسك بمسدسه ، وكان قد وضعه تحت الوسادة ، وقال :

ـ مكانك يالوبين .. لاتتحرك وإلا أطلقت الرصاص .

ـ عجباً .. من أين واتتك هذه الشجاعة أيها الصديق .

ـ آه .. أهذا أنت ياهولمز ؟ هل أنت بحاجة إلىّ .

ـ نعم .. قم .

ومضى به إلى النافذة وقال : انظر.. إلى الناحية الأخرى من البوابة .

ألاترى شيئاً ؟

ـ إننى لا أرى شيئاً ؟

ـ بل ترى .. هناك ، بجدار البوابة ، انظر .. إنهما يتحركان .. كفى مضيعة للوقت .

وأسرعا يهبطان السلم ، وهما يعتمدان على الدرابزين .. وولجا غرفة تؤدى إلى الحديقة ، ورأيا من خلال الألواح الزجاجية للباب أن الشبحين لايزالان فى نفس المكان .

وقال هولمز : هذا عجيب .. يخيل لى أننى أسمع صوتاً فى البيت .

ـ فى البيت ؟ .. مستحيل .. إن الجميع نيام .

ـ أنصت إذن .

وفى هذه اللحظة انطلق صفير خافت من ناحية البوابة ، ورأيا ضوءاً خافتاً ينبعث من داخل البيت .. وتمتم هولمز :

ـ لاريب أن الزوجين هما اللذان أضاءا النور ، فهذه غرفتهما وتقع فوق غرفتنا .

وانطلق صفير آخر ، أشد خفوتاً من الأول .. وقال هولمز فى استياء :

ـ إننى لا أفهم شيئاً .

صفير ثالث ، مرتفع بعض الشئ ومنغم شيئاً ما .. واشتدت الجلبة وازدادت وضوحاً .. وهمس هولمز :

ـ يخيل إلى أنها صادرة من البقعة المنبسطة أمام الشرفة .

وأطل برأسه من فتحة النافذة ، ولكنه سرعان ما ارتد وهو يطلق سبة مختنقة .. ونظر واطسون بدوره .. كان هناك بالقرب منهما سلم مسنداً إلى الشرفة .. وقال هولمز :

ـ هناك شخص فى المخدع .. وهذا ما سمعناه .. أسرع ، ولنرفع السلم .

ولكن فى هذه اللحظة بالذات تسلل شخص من فوق وهبط إلى أسفل ، ورفع السلم.. وجرى الرجل الذى يحمله بكل سرعة نحو البوابة ، فى نفس المكان الذى ينتظره فيه شركاء .. واندفع هولمز وواطسون ، ولحقا به بينما كان يضع السلم أمام الباب.. وانطلقت من الناحية الأخرى رصاصتان .. وصاح هولمز : هل أصبت .

أجاب واطسون : كلا .

وأمسك بالرجل وحاول أن يشل حركته .. ولكن الرجل تحول إليه وأمسكه بإحدى يديه وأغمد بالأخرى خنجراً فى صدر واطسون .. وند عن هذا الأخير آهة ، وترنح ووقع .. وصاح هولمز :

ـ اللعنة ! .. الويل لهم لو أنهم قتلوه .

ومدد واطسون فوق العشب واندفع نحو السلم .. ولكن بعد فوات الأوان .. فقد تسلقه الرجل ، وتلقاه زميلاه وهربوا بين الأشجار الضخمة .. وصاح هولمز :

ـ واطسون .. واطسون .. الأمر ليس خطيراً .. مجرد جرح بسيط ،

أليس كذلك ؟

وانفتحت أبواب البيت فجأة .. وأقبل البارون دامبرفال أولاً ، وتبعه الخدم ، ومعهم الشموع .. وقال البارون :

ـ ما الخبر ؟ هل أصيب مستر واطسون ؟

عاد هولمز يقول وهو يحاول أن يوهم نفسه :

ـ لاشئ .. مجرد جرح بسيط .

ولكن الدم كان يسيل بغزارة .. والوجه كان مصفراً .

وتحقق الطبيب الذى أقبل بعد عشرين دقيقة أن نصل الخنجر توقف على بعد أربع ملليمترات من القلب وقال :

ـ إنه محظوظ حقاً .. لابد له من ملازمة الفراش ستة أسابيع ، وشهرين نقاهة .

؟ ؟ ؟

وإذ اطمأن هولمز تمام الاطمئنان عاد إلى البارون فى المخدع .. فى هذه المرة لم يخرج اللص صفر اليدين ، وإنما تجرأ واستولى على التمثال الصغير المرصع بالماس ، وعلى عقد الياقوت ، وعلى كل ما استطاع أن يحشو به جيوبه .

وكانت النافذة لاتزال مفتوحة ، وقطع لوح الزجاج ، وأثبت التحقيق الذى تم فى الصباح الباكر أن السلم الذى استخدم ، أتى به اللص من البيت الجارى بنائه .. وقال مسيو دامبرفيل فى شئ من السخرية :

ـ صفوة القول ، هذه السرقة تكرار دقيق لسرقة المصباح .

ـ هذا صحيح ، إذا تقبلنا التفسير الذى تبنته العدالة .

ـ أمازلت لاتتبناه أنت ؟ ألم تقوض السرقة الثانية رأيك الأول .

ـ بل إنها تؤيده .

ـ هل هذا معقول .. إن أمامك دليل لايمكن وصفه بأن السطو الذى وقع الليلة قام به شخص من الخارج ، ولاتزال تصر مع ذلك على أن المصباح قد سرقه شخص من الداخل ؟

ـ شخص يقيم فى هذا البيت .

ـ كيف تفسر إذن ؟

ـ إننى لأفسر شيئاً ياسيدى ، وإنما أسجل حادثين لاعلاقة بينهما فى الظاهر ، وأدرس كلا منهما على حدة ، وأحاول أن أجد الصلة التى تربط بينهما .

كان اقتناعه يبدو من العمق ، وطريقة تصرفه مبنية على أسباب قوية بحيث أن البارون لم يسعه إلا أن يحنى رأسه .. وقال :

ـ ليكن .. سنخطر البوليس إذن .

صاح الإنجليزى على الفور :

ـ كلا .. لا تفعل .. لا أريد الاتصال بهؤلاء السادة إلا إذا احتجت إليهم .

ـ وإطلاق الرصاص .

ـ لا أهمية له .

ـ وصديقك ؟

ـ إنما صديقى جريح فحسب .. اطلب من الطبيب أن يلزم الصمت .. وأنا الكفيل بكل شئ من ناحية البوليس .

¿ ¿ ¿

ومر يومان دون حادث يذكر ، تابع هولمز فيهما بدقة شديدة ، وكرامة جريحة ذلك الاعتداء الجرئ الذى وقع تحت عينيه ومن غير أن يستطيع له دفعاً .. وراح يفتش دون ملل أو تعب البيت والحديقة ، ويستجوب الخدم .. وتوقف قليلاً فى المطبخ وفى الاسطبل .. ورغم أنه لم يهتد إلى شئ ينير له الطريق فإنه لم يشعر بأى يأس أو إحباط .. وراح يحدث نفسه قائلاً : سوف أجد ما أريد .. سوف أجده .. إن الأمر هنا ليس كما كان فى قضية الغادة الشقراء ، فقد كنت أتخبط وأسير نحو غاية لا أعرفها .. أما هذه المرة فأنا على أرض المعركة بالذات .. والعدو ليس أرسين لوبين الذى لا أستطيع لمسه أو رؤيته وإنما هى معركة مع الشريك الذى يقيم ويعيش فى هذا البيت ، فأقل أثر سوف يقودنى إليه .

وكان الأثر الذى يتكلم عنه ، والذى مكنه من إماطة اللثام عن لغز المصباح الغامض بتلك العبقرية ، ذلك الأثر ساقته إليه الصدفة وحدها .

؟ ؟ ؟

فى أصيل اليوم الثالث ، دخل غرفة تقع فوق المخدع ، تتلقى فيها الطفلتان دروسهما ، ووجد هنريت ، صغرى البنتين ، تبحث عن مقص .. وقالت تخاطب هولمز :

ـ إننى أقص أنا الأخرى أوراقاً كتلك التى تلقيتها أنت منذ أيام .

ـ منذ أيام ؟

ـ نعم .. إنك تلقيت أثناء العشاء ورقة عليها كلمات .. أعنى برقية .. حسناً . إننى أصنع مثلها أنا الأخرى .

وخرجت.. وما كانت هذه الكلمات لتعنى شيئاً أكثر من أفكار تافهة لطفلة.. وحتى هولمز نفسه أصغى إليها وهو شارد الذهن ، ولكنه راح

يجرى خلف الطفلة فجأة وقد أثارته عبارتها الأخيرة .. ولحق بها فى أعلا السلم وقال لها :

- إذن فأنت أيضاً تلصقين كلمات على الورق .

أجابت هنرييت وهى فخورة جداً :

- أجل .. إننى ألصق كلمات بعد أن أقصها .

- ومن الذى علمك هذه اللعبة الصغيرة ؟

- الآنسة .. مربيتى .. رأيتها تفعل ذلك .. فهى تقطع كلمات من الجرائد وتلصقها .

- وماذا تفعل بها ؟

- تصنع منها برقيات ورسائل تبعث بها .

عاد شرلوك هولمز إلى غرفة الدراسة وقد أثارته كلمات الطفلة ، وحاول أن يستنتج منها الاستنتاجات الحتمية .

جرائد .. كان هناك حزمة منها فوق الموقد ، فبسطها أمامه ، ورأى فعلاً بعض الكلمات وبعض العبارات ناقصة ، اقتطعت بعناية فائقة .. ولكن كان يكفيه أن يقرأ الكلمات السابقة أو التالية لكى يتحقق من أن تلك الكلمات قد أقتطعتها هنرييت بالذات من المقص .. ولكن قد يكون هناك ، بين الجرائد ، جريدة اقتطعت الآنسة بالذات بعض كلماتها .. ولكن كيف يتأكد ؟

وراح شرلوك يقلب صفحات الكتب المدرسية المكدسة فوق المنضدة فى غير تفكير، ثم الكتب الأخرى المرصوصة فوق رفوف أحد الدواليب .. وأفلتت من بين شفتيه فجأة صيحة تدل على الفرح ، فقد عثر تحت بعض الكتب والكراسات القديمة على أحد كتب الحروف الأبجدية المصورة .. وبدا له فى إحدى صفحات ذلك الكتاب فراغ .. وكانت

الصفحة تحتوى على أسماء أيام الأسبوع .. وكانت الأيام كلها موجودة فيما عدا يوم السبت ، فقد اقتطع . وكانت سرقة المصباح قد وقعت يوم السبت .

أحس شرلوك بذلك الانفعال الذى يحس به دائماً وبكل وضوح عندما يصل إلى عقدة محيرة . لم يكن ذلك الانفعال يخدعه أبداً .. وراح يقلب صفحات الكتاب .. وكانت تنتظره مفاجأة فى صفحة أخرى .

فقد كانت الصفحة تضم الحروف الانجليزية مطبوعة بالطريقة الاستهلالية ، ويتبعها سطر سجلت به الأرقام .. وكانت تسعة من تلك الأرقام والحروف ناقصة فسجلها فى مذكرته بالترتيب ، وكان هذا نصها .

ج . ن . ك . و . ١ . ١ . ب . ى . ى ٧٣٢ .

وتمتم : عجباً .. هذه الحروف والأرقام لامعنى لها تقريباً .

ولكن ، هل يمكن بتغيير وضعها الوصول إلى نتيجة .. وراح يحاول ، وبذل جهداً كبيراً حتى توصل إلى وضع الحروف والأرقام بالترتيب الذى بدا له معقولاً .. وكانت النتيجة كالآتى .

أجنبى ايكو ٧٣٢ .

وبهذه النتيجة التى توصل إليها وبكلمة السبت الناقصة ، أدرك أن الموعد المحدد هو يوم السبت ولكن مامعنى ٧٣٢ .. لاريب أنه رقم صندوق بريد .

وكانت هنرييت قد عادت فسألته :

- إنها لعبة ممتعة ، أليس كذلك .

أجابها : نعم .. ولكن أليس معك أوراق أخرى .. أو كلمات مقطوعة

أستطيع أن ألصقها .

ـ أوراق كلا ... ثم إن الآنسة لن يسرها ذلك ، فقد سبق ونهرتنى .

ـ لماذا ؟

ـ لأننى أعطيتك أشياء .. وقالت أنه لايجب أن نذكر شيئاً عن الأشخاص الذين نحبهم .

ـ أنت على حق تماماً .

بدا أن هنريت قد راق لها هذا القول إلى حد أنها أخرجت من حقيبة صغيرة من القماش مشبوكة فى ثوبها بضعة أشياء تافهة : ثلاثة أزرار ، وقطعتان من السكر وأخيراً قصاصة صغيرة من الورق وقالت : حسناً .. إننى أعطيك هذا على كل حال .

كان مدوناً على الورقة رقم مركبة ، وسألها :

ـ من أين أتيت ؟ بهذه الورقة ؟

ـ إنها وقعت من كيس نقودها .

ـ متى ؟

ـ يوم الأحد، فى الكنيسة، بينما كانت تخرج بعض النقود لصندوق النذور .

ـ حسناً .. والآن لاتقولى للآنسة أنك رأيتنى حتى لاتنهرك ثانية .

¿ ¿ ¿

وذهب هولمز إلى البارون رأساً واستجوبه عن الآنسة ، فهز كتفيه وقال :

ـ أليس ديمون ؟ هل تظن .. هذا مستحيل .

ـ منذ متى وهى تعمل فى خدمتكم ؟

ـ منذ سنة فقط .. ولكننى لا أعرف شخصاً أكثر منها هدوءاً .. ثم إننى أوليها كل ثقتى .

ـ وكيف حدث أننى لم أرها بعد ؟

ـ إنها تغيبت يومين .. وما أن عادت اليوم حتى أسرعت لكى ترعى صديقك فإن لها صفات الممرضة.. رقيقة ، وخدومة .. ويبدو أن مستر واطسون مسرور بها .

قال هولمز ، ولم يكن قد اهتم بالسؤال عن صديقه : آه .

وفكر لحظة ثم سأل :

ـ وهل خرجت صباح يوم الأحد ؟

دعا البارون زوجته وألقى عليها السؤال فأجابت :

ـ خرجت الآنسة كعادتها لكى تمض إلى الكنيسة ، فى الساعة الحادية عشرة مع البنتين .

ـ وقبل ذلك ؟

ـ قبل ذلك ، كلا .. ولكننى كنت منزعجة بسبب السرقة .. ومع ذلك فإننى أتذكر أنها طلبت فى اليوم السابق السماح لها بالخروج يوم الأحد صباحاً لرؤية ابنة عم لها كانت تمر بباريس .. ولكننى لا أظنك تشتبه فيها .

ـ طبعاً لا .. ومع ذلك فإننى أود أن أراها .

وصعد إلى غرفة واطسون .. كانت هناك امرأة ترتدى زى الممرضات، ثوباً من القماش الرمادى، منحنية فوق المريض ، وتساعده

على الشراب .. وعندما تحولت إليه عرف فيها هولمز الفتاة التى التقت به أمام محطة الشمال .

¿ ¿ ¿

لم يدر بينهما أى كلام .. وابتسمت أليس ديمون فى هدوء بعينيها الصافيتين الرزينتين، دون أن يبدو عليه أى انزعاج .. وأراد الانجليزى أن يتكلم ، ولكنه لم ينطق إلا ببضع كلمات لامعنى لها ثم سكت .. وعندئذ عادت إلى عملها، وراحت تتحرك فى هدوء تحت بصر هولمز المشدوه ، وحركت بعض القنانى، وفكت ولفت بعض الضمادات، ونظرت إليه بابتسامتها الصافية من جديد .

دار على عقبيه وهبط .. ورأى فى الفناء سيارة البارون فركبها، وأمر السائق أن يذهب به إلى شركة المركبات التى رأى عنوانها فى الورقة التى أعطته الطفلة إياها .. ولم يكن السائق دوبريه ، الذى كان يسوق السيارة رقم ٨٢٧٩ فى صباح يوم الأحد موجوداً، فأعاد السيارة وانتظر حتى أقبل السائق .

وقال دوبريه أنه أقل فعلاً ، من حديقة مونسو ، امرأة شابة ترتدى ثياباً سوداء ، وتضع على وجهها نقاباً سميكاً وكانت تبدو شديدة الاضطراب .

ـ وهل كانت تحمل صرة ؟

ـ نعم صرة طويلة شيئاً ما .

ـ وأين ذهبت بها ؟

ـ إلى شارع تيرن ، على ناصية ميدان سان فردينان .. بقيت هناك عشر دقائق ثم عادت إلى حديقة مونسو .

ـ هل تعرف البيت الذى مضى إليه ؟

ـ طبعاً .. أتريد أن أمضى بك إليه .

ـ نعم .. ولكن امض بى أولاً إلى رقم ٣٦ برصيف أورفيفر .

وكان من حسن حظه أن وجد المفتش جانيمار فى إدارة الأمن ، فقال له :

ـ هل هناك ما يشغلك يامسيو جانيمار .

ـ إذا كان الأمر خاصاً بلوبين فإن هناك مايشغلنى .

ـ الأمر خاص بلوبين فعلاً .

ـ لن أتحرك إذن .

ـ كيف هذا ؟ هل نتخلى .

ـ إننى أتخلى عن المستحيل .. لقد تعبت من هذا النضال غير المتكافئ الذى لايصيبنى منه إلا الفشل .. سترمينى بالجبن ، وبكل ما تريد ، ولكننى لا أحفل .. إن لوبين أقوى منا ، وليس أمامنا إلا أن نحنى رؤوسنا .

ـ أما أنا فلن أحنى رأسى .

ـ سوف يرغمك على احنائها كما أرغم الكثيرين غيرك .

ـ حسناً .. هذا أمر سوف يمتعك كثيراً .

قال جانيمار فى سذاجة :

ـ هذا صحيح .. ومادمت لم تتلق نصيبك من الصفعات فهلم بنا .

واستقل المركبة .. وتوقف السائق بناء على أمرهما قبيل البيت ، فى الناحية الأخرى من الشارع .. أمام مقهى صغير جلسا فى شرفتها ، وطلب هولمز من الجرسون أن يأتيه بورقة وقلم وسطر بضع كلمات ثم استدعى الجرسون وقال له :

- أرجو أن تسلم هذه الورقة لبواب البيت المواجه .

وأسرع إليهما البواب .. وبعد أن كشف له جانيمار عن هويته كمفتش بوليس ، سأله هولمز إذا كانت قد أقبلت امرأة شابة ترتدى ثوباً أسود ، صباح يوم الأحد ، فأجاب :

- نعم .. جاءت وصعدت إلى الطابق الثانى .

- وهل تراها كثيراً .

- كلا .. ولكننى رأيتها أكثر من مرة منذ بضعة أيام .. كل يوم تقريباً منذ أسبوعين .

- وبعد يوم الأحد ؟

- جاءت مرة واحدة ، وقد أقبلت اليوم .

- كيف هذا ؟ هل أقبلت اليوم ؟

- نعم .. وهى هنا منذ عشر دقائق .. والعربة التى أتت بها تنتظر فى ميدان سان فردنيان كالعادة .

- ومن الساكن المقيم فى الطابق الثانى ؟

- يقيم به ساكنان .. الآنسة لانجيه ، ورجل استأجر غرفتين مفروشتين منذ شهر باسم مسيو برسيون .

- لماذا تقول باسم برسيون ؟

- ذلك إنه خطر لى أنه اسم مستعار.. وزوجتى تقوم بخدمته ، وليس بين قمصانه قميصان بنفس الحروف الأولية من هذا الاسم .

- وكيف يعيش ؟

- أوه .. إنه يقضى أوقاته خارج البيت تقريباً .. ويحدث ألايعود إلى البيت ثلاثة أيام متوالية .

- وهل عاد إلى البيت مساء يوم السبت ؟

- مساء يوم السبت ؟ آه ، نعم .. جاء يوم السبت ، ولم يخرج بعد ذلك .

- وأى نوع من الرجال هو ؟

- الواقع أننى لا أدرى ماذا أقول .. فهو متغير .. أحياناً طويل القامة ، وأحياناً قصيرها .. وأحياناً بدنياً ، وأحياناً نحيفاً .. تارة أسمر، وأخرى أشقر .. حتى ليخيل إلى فى كل مرة إننى لا أعرفه .

تبادل جانيمار وهولمز النظر .. وتمتم مفتش البوليس .

- إنه هو .. إنه هو تماماً .

وأحس المفتش العجوز بشئ من البلبلة ، وتوترت قبضتاه فى انفعال ، ورغم أن هولمز كان أكثر منه هدوءاً فقد أحس بانقباض فى صدره .. وقال البواب فجأة :

- آه .. هاهى المرأة الشابة .

وظهرت الآنسة على عتبة الباب فعلاً ، وعبرت الميدان .

- وهاهو مسيو بريسون .

- مسيو بريسون .. ولكن أيهما .

- ذلك الذى يحمل صرة تحت أبطه .

- ولكنه غير مهتم بالفتاة ، فهى تعود إلى المركبة وحدها .

- آه .. إننى لم أرهما معاً أبداً .

أسرع الرجلان بالنهوض .. وعرفا على ضوء الفوانيس هيئة لوبين ، وكان يبتعد فى الناحية الأخرى من الميدان .. وقال جانيمار :

ـ من تفضل أن تتعقب .

ـ هو طبعاً ، فهو الصيد الأهم .

ـ سأتعقب أنا الفتاة إذن .

ولم يكن هولمز يريد أن يكشف شيئاً عن القضية لجانيمار ، فأسرع يقول :

ـ كلا .. كلا .. إننى أعرف أين أجد الفتاة فلا تتركنى .

؟؟؟

راحا يتعقبان لوبين وهما يحتميان بالمارة وبالأكشاك .. وكانت مطاردة سهلة لأن لوبين لم يكن يلتفت حوله ، ويمشى مسرعاً وهو يعرج بساقه اليمنى عرجاً خفيفاً يكاد لايلحظ .. وقال جانيمار :

ـ إنه يتظاهر بالعرج .. آه .. لو وقعت فى الطريق على رجلين أو ثلاثة من رجال الشرطة لأطبقنا عليه ، فإنى أخشى أن نفقد أثره .

ولكن لم يظهر أى أحد من رجال الشرطة .. وإذا بلغا بوابة الاستحكامات الفرنسية لم يعد هناك أى أمل فى لقاء أى واحد منهم .. وقال هولمز :

ـ لنفترق الآن .. فقد أصبح المكان مكشوفاً .

وكانا قد بلغا شارع فيكتور هوجو .. فمشى كل منهما على رصيف ، وراحا يتقدمان محتميين بالأشجار، وظل على هذه الحال نحو عشرين دقيقة ، إلى أن انعطف لوبين يساراً وراح يمشى بمحاذاة نهر السين .

وهناك رأيا لوبين يهبط إلى حافة النهر ، ويقف بضع دقائق دون أن يتمكنا من تمييز حركاته ، ثم عاد أدراجه وصعد إلى الشاطئ

فالتصقا بأحد أعمدة النور.. ومر لوبين بجوارهما ، ولم تكن الصرة معه .

وما أن ابتعد لوبين حتى برز رجل من ظل أحد البيوت ، وتسلل بين الأشجار .. وقال هولمز فى صوت خافت :

ـ يبدو لى أنه يتعقبه هو الآخر .

وبدأت المطاردة من جديد .. ولكن فى شئ من التعقيد بسبب ذلك الرجل .

وعاد لوبين من نفس الطريق إلى بيت ميدان سان فردينان .

واقترب جانيمار من البواب وهو يوشك أن يغلق الباب وقال له :

ـ أنك رأيته ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .. وقد صعد السلم ، وأغلق باب مسكنه بالمزلاج .

ـ ألا يوجد معه أحد ؟

ـ لا أحد ، ولاخادم .. وهو لايتناول طعامه هنا أبداً .

ـ وهل هناك سلم للخدم ؟

ـ كلا .

وعندئذ انثنى جانيمار إلى هولمز وقال له :

ـ إن أبسط شئ هو أن أنتظر أنا بجوار باب لوبين بينما تمضى أنت إلى معاون البوليس بشارع ديمور .. سأعطيك رسالة له :

اعترض هولمز قائلاً : وإذا هرب أثناء ذلك ؟

ـ ولكنى سألبث بجوار الباب .

ـ واحد ضد واحد .. سيكون الصراع غير متكافئ .

ـ ليس فى استطاعتى اقتحام مسكنه مع ذلك ، فلاحق لى فى ذلك ،

خصوصاً فى الليل .

هز هولمز كتفيه وقال :

ـ عندما تلقى القبض على لوبين فلن يلومك أحد عن ظروف القبض عليه .. ثم أن الأمر لن يتجاوز دق الجرس .. وسنرى ما سوف يقع بعد ذلك .

وصعدا .. وكان أمامهما، على البسطة ، باب إلى اليسار، ودق جانيمار الجرس .. ولم يرد عليه أحد .. فدق مرة وأخرى .. وإذ لم يتلق رداً كذلك ، قال هولمز :

ـ هلم بنا ندخل .

ومع ذلك فقد بقيا مكانهما لايتحركان ، مترددين .. فقد أشفقا من الإقدام على العمل ، وبدا لهما فجأة أن أرسين لوبين قريب منهما ، خلف باب هش يمكن تحطيمه بقبضة يد واحدة .. وكان كل منهما يعرف لوبين وألاعيبه الشيطانية ، بحيث لايمكن وأن يسمح لنفسه بالوقوع فى الفخ بمثل هذه البساطة .

وسرت الرعشة فى بدن كل منهما، فقد تناهى إليهما ، من الجانب الآخر للباب ، صوتاً خافتاً قطع حبل الصمت ، وتأكدا أنه واقف خلف الباب يتصنت .. ونظر جانيمار إلى هولمز بركن عينه ، كأنه يسأله الرأى ، ثم هوى بقبضته على الباب فسمعا صوت أقدام فى الداخل لا يحاول صاحبها الهروب ، ودق جانيمار على الباب مرة أخرى ولكن هولمز انقض عليه بكتفه فى حزم وعنف .. واندفع كل منهما إلى الداخل .. ولكنهما توقفا على الفور ، فقد دوت فى الغرفة المجاورة رصاصة تبعتها أخرى ، ثم صوت جسد يقع .

وعندما دخلا رأيا الرجل ممددا ووجهه إلى رخام المدفأة .. وتشنج جسده ولم يلبث أن وقع المسدس من يده .. فانحنى جانيمار

وأدار وجهه .

كان الدم يغطيه كله .. وهتف هولمز يقول :

ـ ياإلهى ! .. إنه ليس هو .

ـ وكيف عرفت ذلك .. إنك لم تفحصه بعد .

زمجر الانجليزى قائلاً :

ـ وهل تظن أن أرسين لوبين بالرجل الذى ينتحر .

ـ ومع ذلك فقد خيل إلينا أنه هو ، وهو بالخارج .

ـ خيل إلينا لأننا أردنا ذلك ، فإن ذلك الرجل يسيطر على أفكارنا .

ـ إذن فهو أحد شركائه .

ـ إن شركاء أرسين لوبين لاينتحرون .

ـ من هو إذن ؟

وفتشا الجثة .. وجد هولمز فى أحد جيوبها محفظة فارغة .. ووجد جانيمار فى جيب آخر بضع قطع من النقود .. ولم يجدا على ثيابه أى أثر أو دليل .

ولم يعثرا فى حقائبه على شئ غير الثياب .. وعلى بعض الجرائد فوق المدفأة ، بسطها جانيمار ، وكانت كلها تتكلم عن سرقة المصباح .

وانصرفا بعد ساعة وهما لايعرفان شيئاً عن الرجل الذى أرغمه تدخلهما على الانتحار .

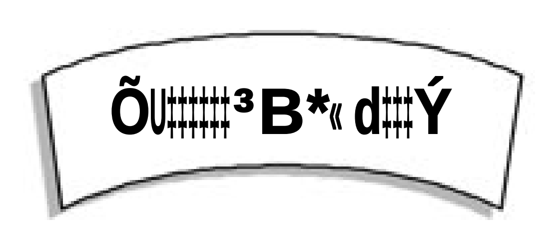
من هو ؟ ولماذا انتحر ؟ وما علاقته بالمصباح المسروق .. ومن الرجل الذى تعقبه فى الطريق ؟ أسئلة كلها معقدة وغامضة .

؟ ؟ ؟

أوى هولمز إلى فراشه وهو عكر المزاج .. وعندما استيقظ تلقى برقية هذا نصها :

"يتشرف أرسين لوبين بإبلاغكم بموته المأساوى فى شخص السيد بريسون ، ويرجوكم حضور جنازته التى ستشيع على نفقة الدولة يوم الخميس ٢٥ يونية" .





قال هولمز لصديقه واطسون وهو يلوح له ببرقية أرسين لوبين :

- إن ما يضايقنى فى هذه المغامرة هو إحساسى الدائم بأن عين هذا الشيطان تلازمنى ، فلا تفلت منه أقل فكرة من أفكارى ، وأشعر بأننى أقوم بدور الممثل طبقاً لسيناريو دقيق .. هل تفهم ياواطسون ؟

ومن المؤكد أن واطسون كان قميناً بأن يفهم لو أنه لم يستغرق فى نوم عميق لرجل حرارته ما بين الأربعين والواحدة والأربعين درجة .. ولكن سواء سمع أو لم يسمع فلم يبد هولمز أى اهتمام وراح يقول :

- يجب أن أستعين بكل جهدى ومواهبى لكى لا أشعر بأى إحباط .. ولحسن الحظ هذه الدعابات الصغيرة كأنها وخزات دبوس تعيد إلى نشاطى وأقول لنفسى :

- فليلهو كما يشاء فإنه سوف يقع فى النهاية .. فهو ببرقيته الأولى لى ، وبحديث هنرييت معى كشف لى عن سر اتصاله بأليس ديمون .. وأنا وجانيمار متواعدان على اللقاء على شاطئ السين ، فى نفس المكان الذى ألقى فيه بريسون بالصرة التى كانت معه.. وسنعرف عندئذ كل شئ عن الدور الذى قام به فى هذه المغامرة .. أما الباقى فهو بينى وبين أليس ديمون ، وهى ليست بالند الذى يمكنه أن

يتصدى لى .

؟ ؟ ؟

دخلت الآنسة فى هذه اللحظة ، وإذ رأت هولمز يلوح بيديه قالت له فى رفق :

ـ سوف أزجرك يامسيو هولمز إذا أيقظت مريضى ، فليس من الخير أن تضايقه ، وأوامر الطبيب صارمة وتقتضى الهدوء التام .

حدجها دون أن ينطق وقد أدهشه ، كما أدهشه فى اليوم الأول ، هدؤها العجيب .. وقالت :

ـ لماذا تحرجنى هكذا يامسيو هولمز ؟ لا شئ ؟ بل هناك سبب ، فإنه يبدو عليك دائماً أنك تخفى شيئاً فى صدرك ، فما هو .. أجنبى ، أرجوك .

ألقت عليه كل هذه الأسئلة بمنتهى الصراحة ، وبعينين بريئتين ، وفم مبتسم ، ويديها المعقودين فوق صدرها المنحنى إلى الأمام قليلاً ، وببراءة بحيث أن الإنجليزى أحس بالغضب ، فاقترب منها وقال فى صوت خافت :

ـ انتحر مسيو بريسون مساء أمس .

كررت قوله دون أن تفهم كما يبدو :

ـ انتحر بريسون مساء أمس ؟

لم يظهر على وجهها أى توتر ، ولا أى شئ يدل على أنها تبذل أى جهد لكى تكذب، فعاد يقول فى غضب :

ـ كنت تعلمين إذن ، وإلا لبدت عليك الدهشة على الأقل .. آه .. إنك أقوى مما كنت أظن .. ولكن لماذا تتكتمين .

وأمسك بكتاب الصور الذى كان قد ألقاه فوق المنضدة المجاورة ،

وفتحه عند الصفحة المقطعة وقال :

ـ هل يمكنك أن تذكرى لى كيف أرتب هذه الحروف التى تنقص هنا لكى أعرف المضمون الصحيح الذى أرسلته إلى بريسون قبل أن يسرق المصباح بأربعة أيام ؟

رددت كلماته فى بطء ، كما لو كانت تستخلص منها معناها ، فقال فى إصرار :

ـ نعم .. هذه هى الحروف المستخدمة ، على هذه الورقة ، ماذا قلت لبريسون ؟

ـ الحروف المستخدمة ؟ ماذا قلت لبرسبون ؟

وفجأة انفجرت ضاحكة وقالت :

ـ آه .. فهمت ، فأنا شريكة فى السرقة .. هناك مسيو بريسون الذى سرق المصباح وانتحر ، وأنا صديقة ذلك السيد .. آه .. إن هذا لمضحك !

ـ من الذى زرته إذن مساء أمس فى الطابق الثانى من البيت الذى يقع فى شارع دى تيرن .

ـ من ؟ إننى ذهبت لزيارة الآنسة لانجيه ، صانعة القبعات .. أتكون هى ومسيو بريسون شخص واحد .

ورغم كل ذلك ظل الشك قائماً لدى هولمز، فإن المرء يستطيع أن يتظاهر بالخوف أو بالمرح أو بالقلق أو بكل المشاعر، ولكنه لايستطيع التظاهر بعدم الاكثراث أو بالضحكة السعيدة اللامبالية .. ومع ذلك فقد عاد يقول :

ـ كلمة أخيرة.. لماذا التقيت بى فى تلك الليلة ، فى محطة الشمال ؟ ولماذا توسلت إلى أن أسرع بالعودة دون أن أهتم بهذه السرقة .

أجابته وهى لاتزال تضحك بطريقة طبيعية :

ـ آه .. أنت رجل فضولى جداً يامسيو هولمز .. وعقاباً لك لن تعرف شيئاً .. وفوق ذلك سوف ترعى المريض ريثما أمضى إلى الصيدلية لإحضار أدوية أمر بها الطبيب .

وخرجت ، وتركت هولمز وحده مع المريض فتمتم :

ـ إنها مكرت بى .. لم أستطع الحصول منها على شئ .. بيد أنى كشفت نفسى فقد عرفت الآن قصة الكتاب ، وأراهن أن لوبين سيعرف ذلك قبل ساعة .. بل الآن فوراً .. وما الأدوية التى أمر بها الطبيب إلا خدعة .

وأسرع بالخروج إلى الشارع ، ورأى الآنسة تدخل صيدلية .. وخرجت بعد عشر دقائق ومعها بعض القنانى وزجاجة ملفوفة فى ورق أبيض .. ولكن بينما كانت تعود اعترضها رجل كان يتبعها ، وقبعته فى يده فى احترام باد كما لو ليطلب منها صدقة .. وتوقفت الفتاة لحظة وأعطته الصدقة ثم عاودت السير .. وقال الإنجليزى يحدث نفسه : إنها كلمته .

ولكنه لم يكن على يقين من ذلك .. ومع ذلك فقد غير خطته وترك الفتاة وانطلق خلف المتسول المزيف .

ووصل إلى ميدان سان فردينان .. وراح الرجل يحوم حول بين بريسون ، ويرفع عينيه من وقت لآخر إلى الطابق الثانى ، ويراقب الناس الذين يدخلون البيت .

وبعد ساعة ، استقل الرجل الترام المنطلق إلى نويى ، وصعد هولمز بدوره وجلس بجوار رجل تحجب وجهه الصفحات المفتوحة لجريدة .. وهبطت الصحيفة عند الاستحكامات ، ورأى هولمز عندئذ أنه جانيمار .. وهمس له هذا الأخير فى أذنه وهو يشير إلى الرجل :

ـ هذا هو رجل الأمس الذى كان يتبع بريسون ، وراح يحوم حول البيت منذ ساعة .

سأله هولمز :

ـ هل من جديد عن بريسون ؟

ـ جاءته رسالة صباح اليوم .

ـ صباح اليوم .. إذن فقد ألقيت فى صندوق البريد أمس قبل أن يعرف الراسل نبأ موت بريسون .

ـ بالذات .. وهى بين يدى قاضى التحقيق .. ولكننى أتذكر مضمونها .

"إنه لا يقبل أى اتفاق .. يريد كل شئ .. الشئ الأول ، وكذلك أشياء المرة الثانية ، وإلا فسوف يتصرف .

وأردف جانيمار:

ـ وهى بغير توقيع .. ولن تفيدنا فى شئ كما ترى .

ـ إننى لا أتفق معك فى هذا الرأى يامسيو جانيمار ، فإن كلمات تلك الرسالة تبدو لى على العكس ذات أهمية كبرى .

ـ ولماذا بالله ؟

أجاب هولمز فى هدوء :

ـ لأن معناها واضح بالنسبة لى .

وتوقف الترام فى شارع شاتون ، نهاية الخط ، وهبط الرجل منه وسار فى هدوء .. وتعقبه هولمز وجانيمار .. واقترب هذا الأخير منه تقريباً ، بحيث أحس هولمز بالخوف وقال :

ـ إذا التفت فسوف ينكشف أمرنا .

ـ إنه لن يلتفت .

ـ وما أدراك ؟

ـ إنه شريك لأرسين لوبين .. وبما أن شريكاً للوبين يمشى هكذا ويداه فى جيبه فهذا يثبت أنه يعرف أن هناك من يتبعه ، وأنه لا يخشى شيئاً .

ـ ومع ذلك فنحن قريبين منه جداً .

ـ وذلك حتى لايفلت من بين أيدينا قبل دقيقة ، فإنه واثق جداً من نفسه .

ـ ولكن .. إنك تثير أعصابى .. أنظر هناك ، عند باب هذا المقهى .. شرطيان من راكبى الدراجات .. إذا قررت اللجوء إليهما فإننى اتساءل كيف يمكنه الإفلات منا .

ـ يبدو أن الرجل لايبالى بهذا الاحتمال ، فهو نفسه يمضى إليهما .

هتف جانيمار : يا للشيطان ! إنه جرئ .

والواقع أن الرجل تقدم نحو الشرطيين عندما هما بركوب دراجتيهما، وقال لهما شيئاً، ثم وثب فجأة فوق دراجة ثالثة ، مسندة إلى جدار المقهى ، وأسرع بالابتعاد مع الشرطيين .

وقهقه الانجليزى وقال :

ـ مارأيك الآن ؟ ألم أتوقع ذلك.. لقد هرب ، ومع من ؟ مع شرطيين .. آه .. إن لوبين هذا جرئ حقاً ، ولايخاف شيئاً حتى إنه ليرشو رجال الشرطة ، ويستعين بهم .

صاح جانيمار فى استياء :

ـ إذن ، ماذا نفعل ؟ من السهل أن تضحك .

ـ لاتغضب .. سوف ننتقم .. ولكن لابد لنا الآن من نجدة .

ـ إن فولنفان ينتظرنى فى آخر شارع فولنفاى .

ـ امض إليه إذن وعد إلى معه .

وابتعد جانيمار .. وتتبع هولمز آثار الدراجات ، وحملته بعد قليل إلى نفس الشاطئ ، وكان عبارة عن لسان صغير من الأرض يمتد نحو نهر السين ، حيث رأى قارباً قديماً على الشاطئ يجلس فيه صياد .

وقف بريسون بالأمس فى ذلك المكان وألقى بالصرة فى الماء .. وهبط هولمز وقد رأى أن من السهل أن يجد الصرة ، هذا ما لم يكن الرجال الثلاثة قد سبقوه ..

وقال يحدث نفسه :

ـ كلا ، كلا .. إنهم لم يجدوا متسعاً من الوقت ، فلم تمض أكثر من ربع ساعة .. ومع ذلك ، فلماذا مروا من هنا .. واقترب من الصياد وقال له :

ـ ألم تر ثلاثة رجال بدراجاتهم ؟

وضع الصياد سنارته تحت أبطه ، وأخرج مفكرة من جيبه كتب شيئاً على ورقة منها ثم انتزعها وناولها لهولمز فقرأ فيها ما يلى :

ج ن ك و ١١ ب ب ٧٣٢

وكانت الشمس ترسل أشعتها الحامية على النهر .. وعاد الصياد فأمسك بصنارته وألقى بها فى النهر ، تحمى رأسه من أشعة الشمس قبعة عريضة الحوافى ، وقد ألقى بجاكتته بجواره ، ومضت دقيقة ، ساد فيها صمت ثقيل ، وقال هولمز يحدث نفسه : أنه هو .

وأخرج مسدسه من جيبه ، وأحس برغبة ضارية فى أن يطلق

الرصاص وأن ينتهى من كل شئ .. ولكن مثل هذا العمل كان ضد طبيعته ، وقال يحدث نفسه :

ـ فلينهض وليدافع عن نفسه .. وإلا فالويل له .. لحظة أخرى وأطلق النار .

ولكنه سمع وقع خطوات خلفه فاستدار، ورأى جانيمار يأتى نحوه، وبرفقته بعض رجال الشرطة ، فغير رأيه ووثب على القارب فانقطع الحبل الذى يربطه إلى الشاطئ نتيجة لقوة الوثبة .. ووقع هولمز فوق الرجل وأمسك بخناقه .. وتدحرج الاثنان فى قاع القارب .. وصاح لوبين وهو يقاومه : وبعد ؟ ما الذى ترمى إليه ؟ ماذا يحدث لو تغلب أحدنا على الآخر؟ لن نتقدم على الإطلاق ، فلن تعرف ماذا تفعل بى ، ولن أعرف ماذا أفعل بك .. سنبقى فى قاع المركب كغبيين .

وانزلق المجدافان فى الماء ، وانساق القارب مع التيار .. وارتفعت الصيحات بطول الشاطئ .. واستطرد لوبين :

ـ ما هذه الحماقة ؟ هل فقدت رشدك ؟ وفى سنك هذه .. ما أقبح هذا ! وأفلح فى التخلص ، فأغتاظ هولمز ، ودس يده فى جيبه فى عزم وإصرار، ولكنه لم يجد المسدس ، فقد سرقه لوبين منه .. وجثا عندئذ على ركبته وحاول الإمساك بأحد المجدافين ، ولكنه لم يفلح .. فقال لوبين :

ـ أرأيت ؟ إن القدر نفسه مع لوبين .. والتيار يحالفنى .

ذلك أن القارب راح يبتعد عن الشاطئ فعلاً .

وصوب بعضهم مسدسه فخفض رأسه وانطلقت رصاصة واستقرت فى الماء على كثب من القارب .. وقال لوبين :

ـ هذا عمل غير سليم ياجانيمار ، فإن القانون لايخولك إطلاق النار

إلا فى حالة الدفاع عن النفس .

وأخرج مسدساً ، وأطلقه دون أن يصوب .. ورفع المفتش يده إلى قبعته ، فإذا بالرصاصة قد ثقبتها .. وقال لوبين :

ـ ما رأيك ياجانيمار ؟ هذا المسدس أنتجته شركة خبيرة فى صناعة المسدسات ، إنه مسدس صديقى العزيز الأستاذ شرلوك هولمز .

وقذف بالمسدس بكل قوته عند قدمى جانيمار ، ثم تحول إلى هولمز وقال له :

ـ إنك فى مكان الصدارة يا أستاذ .. ولا أظنك ترضى أن تتخلى عنه بكل ذهب العالم.. ذلك أنك فى الصف الأول من المقاعد ، ولكن ، أولاً وقبل كل شئ التمهيد ، وبعد ذلك سوف نقفز مرة واحدة إلى الفصل الخامس ، وهو إما إلقاء القبض على أرسين لوبين أو هروبه .. وعليه فعندى سؤال أرجو أن ترد عليه يا أستاذ بلا أو نعم .. ألا تريد أن تتخلى عن هذه القضية ؟ مازال هناك وقت وأستطيع إصلاح ما أفسدته أنت .. أما إذا لم تقبل الآن فلن أستطيع .. فهل توافق ؟

ـ كلا .

انحنى لوبين عندئذ وانتزع لوحاً من قاع المركب .. وقضى بضع ثوان فى عمل لم يستطع الآخر أن يفهم طبيعته ، ثم اعتدل لوبين وقال :

ـ أظن يا أستاذ أننا أتينا إلى هذا الشاطئ لنفس الغرض، وهو استعارة الصرة التى تخلص بريسون منها.. وكنت قد تواعدت مع بعض الزملاء للقاء هنا، واعترف أن أصدقائى عندما أخبرونى بقدومك لم أشعر بأية دهشة ، وأجرؤ فأقول أننى كنت أعرف خطواتك، خطوة خطوة ، والأمر بسيط ، فما من شئ يحدث فى

شارع موريللو حتى تأتينى مكالمة تليفونية أعرف منها كل شئ .

وكان الماء قد تسرب إلى القارب ، من مكان اللوح المنزوع فقال :

ـ عجباً .. لا أدرى ماذا فعلت ، فهل أنت خائف .

هز الانجليزى كتفيه .. وعاد لوبين يقول :

ـ ولعلك تفهم أننى فى هذه الظروف، وأنا أعرف مقدماً ، أنك تنشد النضال ، بقدر ما أبذل أنا جهدى لتفاديه ، كان يروق لى بالأحرى أن أخوض معك معركة كل خيوطها فى يدى .. وأردت أن أتيح لمقابلتنا كل البريق الممكن حتى يعرف العالم أجمع هزيمتك فلا يلجأ إليك أحد بعد ذلك يا أستاذى العزيز، كما لجأ إليك البارون دامبرفال والكونتس كروزون .

وأمسك مرة أخرى ، واستخدم يديه وهما نصف مطبقتين ، كما لو كانتا نظارة ونظر إلى الشاطئ :

ـ آه .. إنهم استقدموا زورقاً كبيراً .. بارجة حربية حقاً .. وها هم يجدفون بكل قوة، وسيصلون بعد خمس دقائق ، وأكون أنا من الهالكين .. إليك نصيحة يامسيو هولمز .. ماذا لو تنقض على وتقيدنى وتقدمنى إلى عدالة بلدى .. هل يروق لك هذا البرنامج ؟ هذا ما لم نغرق معا بطبيعة الحال .. ولايبقى أمام كل منا عندئذ إلا أن يحرر وصيته ، فما رأيك ؟

والتقى بصراهما، وأدرك هولمز عندئذ معنى العمل الذى أقدم عليه لوبين ، فقد ثقب قاع القارب .

وارتفع الماء حتى كعبى حذاءيهما ، وغطى أقدامهما .. ولكن لم يبد أى منهما أدنى حركة .. وتجاوز عرقوبيهما .. وأخرج الإنجليزى كيس الدخان من جيبه ولف لنفسه سيجارة وأشعلها .

ـ وأرجو يا أستاذى العزيز أن لاترى إلا اعترافى المتواضع بعجزى أمامك .. وانحنائى أمامك إن هو إلا قبولاً للمعارك الوحيدة التى أتأكد فيها من أن النصر سيكون بجانبى .. وهذا اعتراف منى بأن هولمز هو العدو الوحيد الذى أخشاه ، وإنى أقر بقلقى وخوفى طالما لا يبتعد عن طريقى .. هذا هو ما أردت قوله لك يا أستاذى العزيز ، مادام القدر قد شرفنى وأتاح لى فرصة الحديث معك .. ولست نادماً إلا على شئ واحد وهو أن حديثنا هذا يدور ونحن نعرض أقدامنا لحمام من الماء .. بل ماذا أقول .. اعرض نصف جسمينا لحمام من الماء .

والواقع أن الماء كان قد بلغ سطح المقعد الذى يجلسان فوقه، وراح القارب يزداد غوصاً .

وظل هولمز على هدوئه والسيجارة بين شفتيه وهو ينظر إلى السماء متأملاً .. لم يرض أن تصدر منه أية بادرة من الانزعاج أو الاضطراب أمام ذلك الرجل الذى تحيط به الأخطار من كل جانب ، ويحاصره الناس ويطارده رهط من رجال الشرطة ويحتفظ رغم ذلك بكل هدوئه ومرحه .

ـ آه .. ولكن ماذا يحاول أى منهما أن يقول .. وكيف ينفعل كل منهما بمثل هذه التفاهات أفلا يغرق بعض الناس كل يوم فى النهر .. وهل يستحق ذلك كل هذا الاهتمام ؟ كان أحدهما يثرثر والآخر يتأمل، وكل منهما يخفى ، تحت نفس قناع اللامبالاة وعدم الاكتراث الصدمة الكبيرة لكبريائهما .. وقال لوبين :

ـ المهم أن نعرف هل سنغرق قبل أو بعد وصول أبطال العدالة ، لأننا سوف نغرق لامحالة ، وهذه هى الساعة الحاسمة لتحرير الوصية ، وأنا أوصى بكل ثروتى لصديقى العزيز شرلوك هولمز .. ياإلهى ! إن الزورق يقترب بسرعة بحيث أننى إذا أفلت من الغرق فلن

أنجو من ديوزى ورجاله على الضفة اليسرى ولا من جانيمار على الضفة اليمنى .

وانشق الماء فى هذه اللحظة ، ودار القارب حول نفسه .. واضطر هولمز أن يتشبث بحلقة المجاديف ، وقال لوبين :

أرجوك يا أستاذ أن تخلع جاكتتك فسوف يكون من السهل عليك أن تسبح حتى الشاطئ عندئذ .. لاتريد .. سألبس أنا إذن جاكتتى .

قال هولمز عندئذ وقد خرج عن صمته :

ـ إنك تتكلم كثيراً يامسيو لوبين .. وقد قدمت لى دون أن تدرى المعلومات التى كنت أبحث عنها .

ـ كيف هذا ؟ كنت تبحث عن معلومات ولم تقل لى ذلك .

ـ لست بحاجة إلى أحد .. بعد ثلاث ساعات سأمضى إلى مسيو ومدام دامبرفال واذكر لهما مفتاح السر .. وهو ..

ولم يفرغ من عبارته ، فقد غرق القارب فجأة وجذبهما معه ، ولكنه لم يلبث أن طفا غير أنه كان مقلوباً .. وارتفعت الصيحات على الشاطئ ، ثم خيم صمت مقلق .. وفجأة أنطلقت صيحات أخرى تدل على الدهشة فقد ظهر أحد الغارقين .

كان شرلوك هولمز .. وألقوا إليه بحبل من الزورق .. وبينما كانوا يرفعونه إلى سطحه قال صوت خلفه :

ـ مفتاح السر أيها الأستاذ العزيز .. من المؤكد أنك عرفته .. بل إننى لأعجب كيف لم تعرفه قبل ذلك .. ولكن .. فيم سيخدمك ذلك ؟ إن فى استخدامك له هزيمتك بالذات .

كان لوبين جالساً على ظهر القارب فى هدوء تام .. واستطرد يقول :

ـ افهمنى جيداً يا أستاذى العزيز .. لن تستطيع شيئاً .. لن تستطيع شيئاً على الإطلاق .. ستجد نفسك فى موقف يرثى له .

وصوب فولنفان مسدسه نحوه وقال :

ـ سلم نفسك يالوبين .

ـ أنت رجل غير مهذب أيها الرقيب فولنفان .. قاطعتنى فى منتصف عبارة .. كنت أقول ..

أطلق فولنفان الرصاص ، فترنح لوبين ، وتشبث بحطام القارب لحظة ، ثم اختفى .

؟ ؟ ؟

كانت الساعة الثالثة عندما وقعت هذه الأحداث .. وفى تمام الساعة السادسة دخل هولمز مخدع شارع موريللو ، مرتدياً بنطلوناً قصيراً جداً وجاكيت ضيقة جداً، استعارهما من صاحب حانة فى نويى ، وطلب مقابلة مسيو ومدام دابمرفال .

ووجداه يتمشى جيئة وذهاباً .. وقال عندما رآهما :

ـ هل الآنسة هنا ؟

ـ نعم ، فى الحديقة ، مع البنتين .

ـ حيث أن الحديث الذى سيدور بيننا ياسيدى البارون حاسم وخطير فإننى أرجو أن تكون الآنسة ديمون موجودة معنا .

ـ هل لابد .

ـ أرجو أن تتذرع بقليل من الصبر ياسيدى .. إن الحقيقة ستظهر بكل وضوح من الوقائع التى سأذكرها أمامكم بكل دقة .

ـ ليكن .. احضرى أليس ديمون ياسوزان .

نهضت مدام دامبرفال ، وعادت على الفور وبرفقتها أليس ديمون .. وكانت هذه الأخيرة شاحبة اللون تقريباً ، على غير العادة .. ووقفت بجوار المنضدة دون أن تسأل عن سبب استدعائها .. وقال هولمز عندئذ :

ـ بعد أيام كثيرة من التحقيق ياسيدى ، ورغم أن بعض الأحداث قد غيرت نظريتى فى وقت ما ، فإننى مازلت أقول لكما أن المصباح قد سرقه شخص من البيت .

ـ ما اسمه ياسيدى .

ـ إننى أعرفه .

ـ والأدلة ؟

ـ إن مالدى من الأدلة تكفى لإدانته .

ـ ولكن لايكفينى أن يدان .. يجب أن يعيد إلينا ..

ـ المصباح ؟ والأشياء الأخرى ؟ إنها معى ياسيدى .

بدت الدهشة على البارون وزوجته ، فى حين راح هولمز يذكر كيف عثر على كتاب الحروف الأبجدية ثم رحلة بريسون إلى الشاطئ ، وثم انتحاره ، وغرق القارب واختفاء لوبين ، وعندما فرغ ، قال البارون فى صوت خافت :

ـ لايبقى عليك الآن إلا أن تذكر لنا اسم الجانى ، فمن هو ؟

ـ هو الشخص الذى انتزع الحروف من هذا الكتاب ، والذى أتصل بأرسين لوبين بهذه الطريقة .

ـ وكيف عرفت أن أرسين لوبين هو الذى اتصل بذلك الشخص ؟

ـ عرفت ذلك من أرسين لوبين نفسه .

وبسط له قصاصة مبتلة من الورق، هى التى كان لوبين قد أعطاها له وقال :

- لاحظ ياسيدى أن الحروف التى بها هى نفس الحروف المقتطعة من الكتاب .. وبعد معالجتها استطعت أن أكون هاتين الكلمتين : أجب أكون ، وقد زاد لوبين إليها بعض الحروف بحيث أصبحت العبارة : اجبنى ايكو دى فرانس ، وهذه الجريدة هى لسان حال أرسين لوبين ، كما هو معروف .. وقد مضيت إلى إدارتها وهناك اكتشفت قصة العلاقة بين أرسين لوبين .. وشريكته .

ووضع هولمز سبع جرائد مختلفة من جريدة ايكو دى فرانسى مفتوحة كلها على الصفحة الرابعة حيث تنشر الاعلانات المبوبة ، وأشار إلى سبعة سطور هذا نصها:

١ ـ ارس . سيدة تطلب حمايتك ٥٤٠ .

٢ ـ ٥٤٠ .. انتظر الايضاحات .

٣ ـ ١ . ل . تحت رح . عدو .. ضائعة .

٤ ـ ٥٤٠ اكتبى العنوان . سأقوم بتحقيق ..

٥ ـ ١ . ل . ١٨ شارع موريللو .

٦ ـ ٥٤٠ . الحديقة ، الساعة الثالثة .. زهور بنفسج .

٧ ـ ٢٣٧ موافق السبت . سأكون صباح الأحد .. الحديقة . صاح مستر دامبرفال : وهل تسمى كل هذا قصة مفصلة ؟

- نعم ، وبشئ قليل من الاهتمام سوف تشاركنى الرأى .. فبادئ ذى بدء ، سيدة أشارت إلى نفسها برقم ٥٤٠ تطلب حماية أرسين لوبين .. ورد عليها لوبين وطلب منها أن توضح الأمر ، فأجابته بأنها تحت سيطرة عدو ، هو بريسون دون أى شك، وأنها ضائعة إذا لم

يخف لمساعدتها .. ولوبين حريص ولايريد التورط مع إمرأة غريبة فيطلب عنوانها ويقترح إجراء تحقيق .. وتتردد السيدة أربعة أيام . ويمكنك أن تراجع التواريخ .. وأخيراً وإذ تتعجلها الأحداث ، وتحاصرها تهديدات بريسون تذكر له اسم شارع موريللو .. وفى اليوم التالى يذكر لها أرسين لوبين أنه سيكون فى حديقة مونسو فى الساعة الثالثة ، ويطلب من المرأة الغريبة أن تضع باقة من زهور البنفسج كوسيلة للتعارف .. وبعد ذلك ، انقطعت المراسلات ثمانية أيام ، إذ لم تعد هناك حاجة لأرسين لوبين وللسيدة لكى يتراسلا عن طريق الجريدة لأنهما إما كانا يلتقيان ، وإما كانا يتراسلان مباشرة .. ودبرت خطة ، وإرضاء لمطالبات بريسون تقوم السيدة بسرقة المصباح ويبقى بعد ذلك تحديد اليوم .. وقد دفع الحرص السيدة إلى أن تقوم بمراسلاتها عن طريق كلمات مقتطعة وتلصقها ، وتحدد يوم السبت وتضيف اجبنى ايكو ٢٣٧ .. ويرد لوبين بأنه موافق وبأنه سيكون فى انتظارها فى حديقة مونسو صباح الأحد .. وتقع السرقة صباح يوم الأحد .

قال البارون :

ـ الواقع أن كل ما ذكرته يتطابق تماماً ، والقصة هكذا قد اكتملت .. واستطرد هولمز يقول :

ـ تقع السرقة إذن ، وتلتقى السيدة بلوبين وتخبره بما فعلت وتمضى بالمصباح إلى بريسون .. وتقع الأمور عندئذ كما توقع لوبين فقد انخدعت العدالة بالنافذة المفتوحة وبالثقوب الأربعة على الأرض وبالخدشين على الشرفة واقتنعت بنظرية السرقة عن طريق السطو .. واطمأنت السيدة .

قال البارون :

ـ إننى مقتنع بهذا التفسير المنطقى .. ولكن السرقة الثانية .

ـ تسببت السرقة الأولى فى السرقة الثانية .. فقد ذكرت الجرائد كيف اختفى المصباح.. وخطر للبعض إعادة تمثيلية السطو والاستيلاء على ما لم يسرق فى المرة الأولى .. وكانت سرقة حقيقية فى تلك المرة غير مفتعلة .

ـ لوبين بالطبع .

ـ كلا .. فلوبين لايتصرف بمثل ذلك الغباء ، ولايطلق الرصاص على الناس مهما كان السبب .

ـ من إذن .. ؟

ـ بريسون دون أى شك .. بدون علم السيدة التى هددها.. بريسون هو الذى دخل هنا ، وهو الذى طاردته وهو الذى أصاب صديقى واطسون المسكين .

ـ هل أنت واثق مما تقول ؟

ـ كل الثقة .. فقد كتب له أحد شركائه أمس ، قبل انتحاره رسالة تثبت أنه وجدت مفاوضات بين هذا الشريك وبين لوبين لاسترداد جميع المسروقات، وطالب لوبين بكل شئ : الشئ الأول (أى المصباح) وكذلك الأشياء الأخرى التى سرقها فى المرة الثانية .. ثم إنه كان يراقب بريسون .. وعندما مضى هذا الأخير إلى شاطئ النهر مساء أمس تعقبه أحد رجال لوبين فى نفس الوقت الذى كنا نتعقبه فيه .

ـ وماذا فعل بريسون على شاطئ النهر ؟

ـ علم أننى أتقدم فى تحقيقى .

ـ وممن علم ؟

ـ من نفس السيدة .. وكانت تخشى أن يتسبب اكتشاف المصباح

فى اكتشاف مغامراتها .. علم بريسون إذن فجمع فى صرة واحدة كل ، ما يمكن أن يورطه وألقاها فى مكان يستطيع منه استعادتها بعد أن يزول الخطر .. وإذ رأى أثناء عودته أننى أطارده ، أنا وجانيمار ، ولما كان ضميره يثقله بسبب جرائم أخرى فقد فقد عقله وانتحر .

- ولكن ماذا كان فى تلك الصرة .

- المصباح وتحفك الأخرى .

- هى ليست معك إذن ؟

- بعد أن اختفى لوبين ، انتهزت فرصة الحمام الإجبارى الذى ارغمنى عليه لكى أمضى إلى المكان الذى اختاره بريسون ، ووجدت الصرة وبها الأشياء المسروقة ، ملفوفة فى قطعة من القماش المشمع .. وها هى على هذه المنضدة .

ومن غير أن ينطق البارون بكلمة ، قطع الدوبارة والقماش المبتل وأخرج منه المصباح ، وأدار صامولة صغيرة فى أسفله وعالج الوعاء بيديه الاثنتين ، وفكه وفتحه من ناحيتين متساويتين ، ووجد التحفة الذهبية المرصعة بالياقوت والزمرد.

¿ ¿ ¿

كان فى ذلك المشهد الطبيعى جداً فى ظاهره والذى يبدو كمجرد عرض للحقائق شئ مثير ومأساوى ، وهو الاتهام القاطع الذى وجهه هولمز فى كل كلمة من كلماته إلى الآنسة ، وكذلك صمت أليس ديمون العجيب .

فأثناء ذلك الحديث الطويل القاسى الذى تدعمه الأدلة لم يصدر من الفتاة ماينم على التمرد أو الخوف .. ففيم كانت تفكر .. ثم ماذا

ستقول عندنا سيتعين عليها أن ترد وأن تدافع عن نفسها وتحطم الحلقة الحديدية التى أحاطها بها هولمز بكل براعة .

ودقت تلك اللحظة ، ومع ذلك فقد لاذت الفتاة بالصمت .. وصاح مسيو دمبرفال :

ـ تكلمى .. تكلمى إذن .

ولكنها لم تنطق ، فعاد يقول فى إصرار :

ـ كلمة واحدة تبررين بها نفسك .. كلمة إنكار فأصدقك .

ولكنها لم تنطق بتلك الكلمة .

واجتاز البارون الغرفة بسرعة ثم عاد أدراجه .. وعاد فاجتازها من جديد .. وخاطب هولمز :

ـ كلا ياسيدى .. لايمكن أن أصدق .. هناك جرائم مستحيلة ، وهذه تتنافى مع كل ما أعرف وكل ما أرى منذ سنة .

وألقى يده على كتف الإنجليزى وأردف :

ـ ولكن ، أنت نفسك ياسيدى .. هل أنت واثق تماماً أنك غير مخطئ ؟؟

تردد هولمز كرجل هوجم فجأة ولم يسعفه الوقت للدفاع .. ومع ذلك فقد ابتسم وقال :

ـ إن الشخص الوحيد الذى اتهمه كان يعرف بحكم وضعه فى هذا البيت أن هذه التحفة الفريدة موجودة فى المصباح .

تمتم البارون :

ـ لا أريد أن أصدق .

ـ سلها بنفسك .

وكان ذلك فى الواقع هو الشئ الوحيد الذى لم يحاوله للثقة العمياء التى توحيها إليه الفتاة .. ومع ذلك فما كان بوسعه تجاهل الأمر الواضح .. فاقترب منها وحدجها بعينيه وقال :

ـ أهى أنت يا أنسة ؟ أ أنت التى أخذت التحفة؟ أ أنت التى راسلت أرسين لوبين وافتعلت السرقة ؟؟

أجابت : نعم ياسيدى .

ولم تغض الطرف .. ولم يبد على وجهها خجل أو ارتباك ، فتمتم :

ـ هذا غير ممكن .. ما كنت لأظن أبداً .. أنت آخر شخص أشك فيه .. كيف فعلت ذلك أيتها التعسة ؟

قالت :

ـ إننى فعلت كما قال مسيو هولمز .. أتيت فى مساء يوم السبت إلى هذا المخدع وأخذت المصباح ، وفى الصباح .. أعطيته لذلك الرجل .

صاح البارون : ولكن لا .. إن ما تقولين غير مقبول .

ـ غير مقبول .. ولماذا ؟

ـ لأننى وجدت فى الصباح باب هذا المخدع موصداً بالمزلاج .

اضطرم وجهها ، وارتبكت ، ونظرت إلى هولمز كما لو لكى تطلب منه النصح .. ودهش هولمز لارتباكها أكثر من دهشته لاعتراض البارون .. أليس لديها ما ترد به ؟ هل اعترافها بما قدمه من تفسير سرقة المصباح يخفى أكذوبة تهدم الاستقصاءات التى قام بها .. وعاد البارون يقول :

ـ كان هذا الباب مغلقاً .. وأؤكد أننى وجدت المزلاج فى موضعه كما تركته بالأمس، فلو إنك دخلت من هذا الباب كما تزعمين فقد كان

لابد أن يفتحه لك أحد من الداخل ، أى من مخدعنا أو من غرفتنا .. ولم يكن هناك أحد فى هاتين الغرفتين .. لم يكن هناك أحد غيرى أنا وزوجتى .

إنحنى هولمز فجأة ، ودفن وجهه بين يديه لكى يخفى احمراره ، فإن شيئاً كما لو أنه ضوء عنيف صدمه وتركه مبهوراً ، ضيق الصدر ، فقد تكشف أمامه كل شئ ، كمنظر مظلم انقشع عنه الظلام فجأة .

كانت أليس ديمون بريئة .

أليس ديمون بريئة .. كان هذا أمراً مؤكداً ، وكان فيه فى نفس الوقت تفسيراً للضيق الذى أحس به فى أول يوم اشتبه فيه فى الفتاة .. كان يعلم .. ورأى أمام عينيه على الفور الدليل القاطع على براءتها .

ورفع رأسه ، وبعد بضع لحظات حول عينيه ، بطريقة طبيعية ، وبقدر ما استطاع نحو مدام دامبرفيل .

كانت شاحبة شحوب المرء عندما تواجهه أشد ساعات حياته حرجاً ، وكانت تحاول إخفاء يديها اللتين سرت فيهما الرعشة .. وفكر هولمز " لحظة أخرى وتفضح نفسها " .

وقف بينها وبين زوجها وبه رغبة ملحة فى إبعاد الخطر المخيف الذى يهدد حياة ذلك الرجل وتلك المرأة ، وذلك بسببه هو .. وسرت الرعشة فى كل كيانه ، فإن نفس الحقيقة التى بهره ضوؤها أضاءت وجه البارون ، وفهم بدوره كل شئ .

وفى محاولة يائسة وقفت أليس ديمون ضد الحقيقة فقالت :

ـ أنت على صواب ياسيدى ، فقد أخطأت .. والواقع أننى لم أدخل

من هذا الباب وإنما مررت بالردهة ثم بالحديقة واستعنت بالسلم ..

جهد يائس للخلاص .. ولكن لاطائل منه ، فقد نطقت كلماتها بالذات بزيفها .. وكان الصوت غير ثابت ، ولم يعد للمخلوقة الرقيقة نفس العينين الصادقتين ، فاطرقت برأسها وقد أحست بالهزيمة .

؟ ؟ ؟

كان الصمت فظيعاً .. وانتظرت مدام دامبرفال وقد اصفر لونها وتوترت فى وقفتها من فرط القلق والهلع .. وبدأ البارون كأنه لا يزال يقاوم ، كما لو أنه لايريد أن يصدق إنهيار سعادته .. وتمتم :

ـ تكلمى .. بررى لنفسك .

قالت فى صوت خافت جداً ووجهها شديد التوتر :

ـ ليس لدى ما أقول ياصديقى المسكين .

ـ إذن .. والآنسة ؟

ـ إن الآنسة انقذتنى .. بإخلاصها .. وحبها ، وباتهامها لنفسه .

ـ أنقذتك ؟ .. ومن أى شئ ؟

ـ من ذلك الوغد .

ـ بريسون ؟

ـ نعم .. فقد كان يهددنى أنا .. عرفته عند صديقه لى .. وكنت من الجنون بحيث استمعت إليه .. أوه ، لا شئ يستحق غفرانك .. ومع ذلك فقد كتبت إليه رسالتين ، ستراهما .. فقد اشتريتهما منه .. وأنت تعرف كيف .. أوه ، ترفق بى .. فشد ماعانيت وبكيت .

ـ أنت .. أنت ياسوزان ؟

لأن يقتلها ، ولكن ذراعيه تهدلتا إلى جانبيه وتمتم من جديد :

ـ أنت ياسوزان ؟ أنت ؟ أهذا ممكن ؟

وبعبارات قصيرة مبتورة روت المغامرة المبتذلة المحزنة ، وصحوتها المذعورة أمام فظاعة الرجل ، وتبكيت ضميرها ، وخوفها .. وتكلمت أيضاً عن إخلاص أليس ووفائها ، فإن الفتاة خمنت يأس سيدتها فانتزعت منها اعترافها وكتبت للوبين ، ودبرت قصة تلك السرقة لإنقاذها من براثن بريسون .

وعاد مسيو دامبرفال يقول وقد تقوس ظهره :

ـ أنت ياسوزان ؟ كيف أمكنك ..

؟ ؟ ؟

فى مساء نفس اليوم كانت السفينة " مدينة لندن " التى تنتقل ما بين كاليه ودوفر تبحر عبر البحر الساكن فى بطء .. كانت الليلة معتمة وهادئة ، والسحب الخفيفة تحلق فوق السفينة وتفصلها عن المكان اللانهائى حيث ينتشر نور القمر والنجوم .

ومضى أغلب الركاب إلى قمراتهم والصالونات ، ومع ذلك فقد بقى بعضهم يتمشون على سطح الباخرة فى حين تمدد البعض الآخر فوق المقاعد المستطيلة ، تحت أغطية سميكة .. وكان يرى هنا وهناك ومضات السيجارة ، ويتناهى إلى الأسماع الأصوات التى لاتريد أن ترتفع وتقطع الصمت العميق المهيب .

وراح أحد الركاب يتمشى فى خطوات منتظمة ، بطول حاجز السفينة ، وتوقف أمام فتاة مستلقاة فوق مقعد .. ونظر إليها فاحصاً .. وإذ رآها تتحرك قليلاً قال :

ـ كنت أظنك نائمة يا آنسة أليس .

ـ كلا .. كلا يامسيو هولمز .. لا أريد أن أنام .. كنت أفكر .

ـ فيم ؟ أأكون متطفل إذا سألتك ذلك ؟

ـ كنت أفكر فى مدام دامبرفال .. لاريب أنها حزينة ، فقد ضاعت حياتها .

أسرع يقول :

ـ كلا .. فإن غلطتها ليست من تلك التى لاتغتفر سينسى مسيو دامبرفال هذه الغلطة ، بل أنه كان ينظر إليها بأقل قسوة ونحن نغادر القصر .

ـ ربما .. ولكن النسيان سيطول .. وهى تتألم .

ـ إنك تحبينها كثيراً ؟

ـ نعم .. وذلك هو الذى منحنى القوة لكى ابتسم وأنا ارتجف من الخوف ، ولكى أنظر إليك مواجهة فى حين أننى كنت أتمنى الهرب .

ـ ويحزنك أن تفارقيها ؟

ـ يحزننى جداً ، فليس لى أهل ولا أصدقاء .. لم يكن لى غيرها .

قال الإنجليزى وقد بلبله هذا الحزن :

ـ سيكون لك أصدقاء .. وأعدك بذلك .. فإن لى علاقات .. ونفوذ كبير . وأؤكد لك أنك لن تندمى على وظيفتك .

ـ ربما .. ولكن لن تكون مدام دامبرفال هناك .

ولم يتبادلا أى حديث آخر .. ودار شرلوك هولمز مرتين أو ثلاث مرات بالباخرة ، ثم عاد وجلس بجوار زميلته فى السفر .

وأخذ الضباب ينقشع ، وبدا كأن السحب تنفصل عن السماء ولمعت النجوم .. وأخرج هولمز غليونه من جيب معطفه وحشاه ، ولم

يفلح فى إشعال عيدان الثقاب الأربعة التى حكها الواحد بعد الآخر .. ولما لم يكن معه غيرها فقد نهض ، وقال لرجل يجلس على بعد خطوات :

ـ هل أجد معك عوداً من الثقاب .

أخرج الرجل عوداً من علبة معه وحكه .. وظهرت شعلة على الفور رأى لوبين على ضوئها أرسين لوبين .

؟ ؟ ؟

ولولا تلك الحركة البسيطة ، وهى حركة ارتداد تكاد لاتلحظ لافتراض لوبين أن هولمز كان يعلم بوجوده على الباخرة .. ولكن والحق يقال بقى الإنجليزى سيد نفسه .. ومد يده بحركة طبيعية جداً لغريمه وهو يقول :

ـ أراك دائماً فى صحة جيدة يامسيو لوبين .

هتف لوبين وقد أعجبه هدوء الإنجليزى : مرحى !

ـ مرحى ، ولماذا ؟

ـ لماذا ؟ إنك ترانى أظهر أمامك كما لو كنت شبحاً ، بعد أن شاهدتنى أغرق فى نهر السين ، ومع ذلك فببرود ، بل بمعجزة من البرود الإنجليزى المعروف لم تصدر منك بادرة ذهول ، ولا كلمة دهشة .. ولعمرى أعود فأقول مرحى .. هذا عجيب .

ـ ليس هذا بعجيب ، فقد رأيت من طريقة سقوطك من فوق القارب أنك تسقط طواعية وأن رصاصة الشرطى لم تصبك .

ـ وانصرفت أنت قبل أن تعرف ما حدث لى .

ـ ما حدث لك .. كنت أعرف أنك ، فقد كان هناك خمسمائة شخص يتحكمون فى مساحة نحو كيلو متر من ضفتى النهر ، وكان اعتقالك

أكيداً إذا نجوت من الموت .

- ومع ذلك فها أنذا أمامك !

- مسيو لوبين ، هناك شخصان فى الدنيا لايدهشنى فيهما شئ ، أنا أولهما ثم أنت .

¿ ¿ ¿

وهكذا تصالح الرجلان .

فإذا كان هولمز لم يفلح فى اجراءاته ضد أرسين لوبين ، وإذا كان لوبين قد بقى بالنسبة له العدو الأكبر الذى لابد له أن يتخلى نهائياً عن اعتقاله ، وإذا كان يحتفظ دائماً بالتفوق أثناء النضال .. فإن الإنجليزى ، قد وجد بإصراره العجيب المصباح ، كما سبق أن عثر على الماسة الزرقاء .. ولعل النتيجة هذه المرة أقل بريقاً ، ولاسيما من وجهة نظر الجمهور لأن هولمز اضطر أن يلزم الصمت عن الظروف التى أعاد بها المصباح وأن يعلن أنه لايعرف اسم الجانى .. ولكن من رجل لرجل ، ومن لوبين لهولمز، ومن المخبر السرى للص لم يكن هناك بحق لاغالب ولامغلوب ، فإن كلا منهما يمكن أن يزعم أنه على قدم المساواة مع الآخر من ناحية الفوز .

وتبادلا الحديث إذن كغريمين لطيفين ألقيا بأسلحتهما ، وقدر كل منهما الآخر حق قدره .

وتلبية لرغبة هولمز ، روى لوبين كيفية هربه فقال :

- ذلك إذا كان يمكن أن نسمى ذلك هرباً ، فقد كان الأمر بسيطاً جداً .. كان أصدقائى مرابطين فى المكان ، لأننا كنا قد تواعدنا على اللقاء لانتشال المصباح .. وبعد أن بقيت نصف ساعة تحت القارب المقلوب ، انتهزت لحظة كان فولفان ورجاله يبحثون فيها عن جثتى

بطول الضفتين وصعدت فوق حطام القارب ، والتقطنى زملائى وهم يمرون بى بزورقهم البخارى ، وانطلقوا تحت العيون المذهولة لخمسمائة رجل ، ومعهم جانيمار وفولنفان .

صاح هولمز :

ـ عظيم جداً .. والآن ، ألديك عمل فى انجلترا ؟

ـ نعم .. تصفية بعض الحسابات .. ولكننى نسيت .. ومسيو دامبرفال ؟

ـ إنه يعرف كل شئ .

ـ آه يا أستاذى العزيز ! ماذا قلت لك ؟ أن الضرر لايمكن إصلاحه الآن .. ألم يكن من الأفضل أن تتركنى أتصرف وفق إرادتى ؟ لو إنك انتظرت يوماً أو يومين لاستردتت المصباح والتحف من بريسون ولأعدتها إلى دامبرفال ، ولباشر هذان الزوجان الباسلان حياتهما فى هدوء ولكن بدلاً من ذلك ..

ضحك هولمز وقال : بدلاً من ذلك عقدت الأمور وبذرت الشقاق فى أسرة كنت تكلأها بحمايتك .

ـ يا إلهى ! .. نعم .. كنت أحميها .. وهل من الضرورى أن أسرق دائماً وأخدع ؟

ـ إذن فأنت تفعل الخير أيضاً .

ـ عندما أجد الوقت .. ثم إن هذا يستهوينى .. وأرى أن من الغريب حقاً أننى قمت فى المغامرة التى شغلتنا بدور ملاك الخير الذى يسعف وينقذ فى حين أنك أنت قمت بدور ملاك الشر الذى يجلب اليأس والدموع .

احتج الإنجليزى قائلاً : الدموع !

ـ طبعاً .. فإن أسرة دامبرفال قد تقوضت وأليس ديمون تبكى .

ـ لم يكن بمقدورها أن تبقى ، فقد كان لابد أن يكتشف جانيمار الحقيقة ، ومنها يصل إلى مدام دامبرفال .

ـ إننى أشاركك الرأى تماماً يا أستاذ .. ولكن من المخطئ .

؟ ؟ ؟

مر أمامهما رجلان .. وقال هولمز يخاطب لوبين بلهجة تغيرت قليلاً :

ـ هل تعرف من هذان السيدان ؟

ـ أظن أن أحدهما قبطان الباخرة ؟

ـ والآخر ؟

ـ لا أعرفه .

ـ إنه مستر اوستين جيليت ، ووظيفته فى إنجلترا تعادل وظيفة مسيو ديدوا ، مدير الأمن فى فرنسا .

ـ آه .. يالها من فرصة .. هل تتكرم وتقدمنى إليه .. إن مسيو ديدوا من أعز أصدقائى ، ويسرنى أن أقول نفس القول عن مستر أوستن جيليت .

وظهر الرجلان من جديد فقال هولمز وهو ينهض :

ـ وإذا عملت بكلمتك ؟

وكان قد أمسك بمعصم أرسين لوبين وراح يضغط عليه بقوة .

ـ لماذا تضغط بقوة هكذا يا أستاذ ؟ إننى على استعداد لأن أتبعك .

والواقع أنه استسلم له دون مقاومة .. وكان الرجلان قد ابتعدا ،

فأسرع هولمز خلفهما وقد انغرزت أصابعه فى لحم لوبين بالذات .. وقال فى صوت أصم ، فى نوع من العجالة المحمومة لكى يفرغ من الأمر بأقصى سرعة :

ـ هيا .. أسرع .

ولكنه لم يلبث أن توقف فجأة ، فقد تبعتهما أليس ديمون ، وقال :

ـ ماذا تفعلين يا آنسة ؟ ليس هناك داع .. لاتأتى معنا .

وكان لوبين هو الذى رد فقال :

ـ أرجوك أن تلاحظ يا أستاذ أنها لاتتبعنا طواعية ، فإننى اضغط على معصمهما بنفس القوة التى تضغط بها أنت على معصمى .

ـ ولماذا ؟

ـ كيف هذا ؟ ولكننى أتمسك جداً بأن أقدمها هى الأخرى ، فأن دورها فى قضية المصباح أكثر أهمية من دورى ، فبصفتها شريكة أرسين لوبين ، وشريكة بريسون، يجب أن تروى هى الأخرى قصة البارونة دامبرفال ، وهى قصة ستهم العدالة .. وبهذا تكون قد ذهبت بتدخلك فى صنع الخير إلى أقصى الحدود .. يا لك من رجل كريم ياهولمز !

أطلق الإنجليزى معصم أسيره .. وأطلق لوبين معصم الفتاة .

ووقفوا جامدين بضع لحظات ، وكل من الرجلين أمام الآخر ، ثم عاد هولمز إلى مقعده وجلس ، وعاد لوبين والفتاة إلى مكانيهما .. وقال لوبين :

ـ أرأيت يا أستاذ .. مهما صنعنا فلن نكون أبداً فى نفس الجانب ، فسوف تقف أنت فى ناحية الهوة وأنا فى الناحية الأخرى .. يمكن أن يحيى كل منا الآخر وأن يصافح كل منا الآخر ولكن ستكون الهوة

بيننا دائماً .. ستكون أنت البوليس السرى شرلوك هولمز دائماً وسأكون أنا اللص أرسين لوبين دائماً، وسينساق شرلوك هولمز تقريباً مع غريزته كبوليس سرى ويطارد اللص ويحول أن يعتقله إذا أمكن ، وسيحاول أرسين لوبين أن يتجنبه ويهزأ به إذا استطاع .. وقد استطاع هذه المرة... آه .. آه ..

وانفجر ضاحكاً ، ضحكة ساخرة وقاسية وبغيضة .

ثم انحنى نحو الفتاة فى هدوء ووقار وقال :

ـ ثقى يا آنسة اننى ما كنت لأغدر بك حتى لو بلغت إلى نهاية المطاف ، فإن أرسين لوبين لايغدر بأحد ولايخون أحداً أبداً ، وخاصة أولئك الذين يحبهم ويعجب بهم واسمحى لى أن أقول لك أننى أحببتك واعجبتنى شجاعتك وقوتك .

وأخرج من محفظته بطاقة قطعها نصفين وناول نصفاً منها إلى الفتاة وقال فى انفعال واحترام :

ـ إذا لم يفلح مستر هولمز فى مساعيه فاذهبى إلى الليدى سترونجبولو ، وستجدين عنوانها بسهولة ، وقدمى لها نصف البطاقة وقولى لها هاتين الكلمتين " ذكرى أمينة " فتخلص لك الليدى سترونجبولو كما لو أنك أختها .

قالت الفتاة : شكراً .. سأمضى إلى هذه السيدة غداً .

هتف لوبين فى ارتياح رجل أدى واجبه :

ـ والآن يا أستاذى العزيز ، أتمنى لك ليلة طيبة ، فمازالت أمامنا ساعة قبل الوصول إلى البر .. وسأنتهز هذه الفرصة .

وتمدد بطول جسده ، وعقد يديه خلف ظهره .

؟ ؟ ؟

كانت السماء مفتوحة أمام القمر .. وتألق نوره الرائع حول النجوم وفوق سطح البحر، وراح يطفو فوق صفحة الماء ، وفى اللانهائية ، حيث تذوب آخر السحب .

وانفصل الشاطئ من الأفق المظلم ، وصعد الركاب إلى سطح الباخرة ، ومر مستر أوست جيليت وبرفقته رجلان عرف هولمز أنهما ضابطين من البوليس الإنجليزى .

وكان لوبين راقداً فوق مقعده .

